

البطل الأعظم

محمد علي الكبير

الناشر

دار الفكر الحارثي للطبع والنشر

شارع فيصل الثانية

دار الكتب والوثائق القومية

(٦٥٨ دار)

مراقبة

عنوان الكتاب

الذئ أو الرمز

الرقم

التاريخ الواجب
إعادة الكتاب فيه

رقم المستعير

التاريخ الواجب
إعادة الكتاب فيه

رقم المستعير



حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول

البطل الأعظم
محمد علي الكبير



« وشددنا ملسكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ،
(قرآن شريف)

بقلم
اسكندر عزيز
بوزارة المالية

دار الفكر الحارثية للطبع والنشر
الطبعة الأولى سنة ١٩٥٠

هدية الكتاب

إلى



حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول

أتشرف بأن أرفع إلى مولاي الأعظم خير قصة استملاها القلم من
وحي وجدان حيّ . توارث من جد لأب . ومن أب لابن . إلى أن تركز
في أعماق قلبي . ثم نضح القلب بوجدانه . فتقطر على صفحات كتابي .
كتاب أخلاقي . أشدت فيه بمثل عليا استوحاها القلم من كتاب سماوى
حوى من الكلام الحيوى الحىّ ما لا ينفد ما نفذت في الأرض بحار .
ولا ينضب ما نضبت في السماوات أنواره ولو أن ما في الأرض من شجرة
أقلام والبحر يمدّه من بعدد سبعة أبحر ما نفذت كلمات الله إن الله عزيز حكيم .
مثل عليا درجت يبطل كريم منذ طفولته . وتطوّرت به في مجال الحياة
حتى بلغت ذروتها . وهو ما زال في عزّ فتّوته . وقد كانت الكلمة الجميلة
والبيئة النبيلة والطبيعة الجميلة الأثافيّ الثلاث التي نضجت عليها عبقريته .
ما كتابي هذا بسفر تاريخي مقتبس من مؤلفات التاريخ التي ازدحمت بها

رفوف مكاتبنا حتى كادت تنهار بها . وإنما هو رسالة متواضعة نسجها الخيال
عن أحاديث الأمهات والآباء والأجداد للأبناء والأحفاد . دارت حول
سيرة طفل كريم . رفعتة الخلال الحميدة . والجبلات القويمة . حتى أصبح
جديراً باعتلاء أجد الأرائك . وارتقاء أعرق العروش .

ولقد أباح الوجدان للقلم عدم التقيد بالحقائق البحتة . وأطلق له حرية
الترويض في مجال الخيال . حيث ينسج ديباجة قشيبه لمحاتها الجمال . وسداتها
الكمال . لعلها أن تكون لأبناء الوطن خير مرجع يهذب النفوس . ويذكى
وطنيتها . ويثير حميتها . ويحيي في قلوبهم الفضيلة والإيمان . والحزم والإقدام .
تلك المثل العليا التي تعينهم على تقويم خلقهم . إسعاداً لأنفسهم . وإنهاضاً لدولتهم .
فإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا .

تلك المثل العليا التي تجتمع وامتزجت ونضجت وأزهرت وأثمرت .
فكسوت شخصية طيبة نمت في موطن القائد المقدوني . وتحلت وزهت .
ثم عبرت البحر الرومي وعلى ضفاف النيل تجملت وانجلت .

بزغ النجم في الشمال زاهياً . ثم يم إلى الجنوب هادياً . فانطلق بطله إثره
يستقل على أيم فلكا . ويم إلى مصر حيث يستقل ملكاً .

استقر على ضفاف نيله . إستقرار سيدنا إبراهيم في أرضه المباركة .
واستل آية ربه « رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام » .
فاستجاب ربه دعوته . وجعله في مصر آمناً مطمئناً وجنبه وبنيه عبادة
الأصنام والساطين الكرام . وعبدوا الله ربّ الأنام . وإذا ما أسكن
أمرته بواديه ذى الزرع الوفير الطيب . والصعيد الخصيب ذى الفيض
الصيب . وقال لذويه الأبرار المخلصين « أدخلوا مصر إن شاء الله آمنين » .

رفع عينيه إلى ربه وتلى : فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . .

سكنوا مصر . وأقاموا بها حبيجة بعد حبجة . ثم استوطنوها جيلا بعد جيل . وأخلصوا لها . واتفقوا ربهم فرزقهم من ثمرات أرضها . ثم هويت إليهم أفئدة أهلها . فاندمجوا جميعاً أمة واحدة في وطن واحد . وأسبغ الله عليهم من نعمه . . . سعدوا فشكروا وكانوا من المفلاحين .

استتبَّ سلطان « البطل الأعظم » . وامتدت أفنان ملكه من منابع النيل إلى مصبِّيه . وأورفت على روافده وقطريه . وإذا ما تسامل أغرماؤه ، إلى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال . فكأنني بنبي لهم يحییهم : إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم .

وما زال أبناؤه وأحفاده الأجداد - إبراهيم وسعيد وإسماعيل وفؤاد - يتوارثون عرشه العتيد . إلى أن تبوأه « القاروق » ، ذو الملك المجيد . والحكم السديد والعهد السعيد . فمد أركانه . وشد بنيانه .

توارثوا عرش مصر ما توارث أبائى الإخلاص له ولها . وقد كان جدى الأكبر « الحكيم » ، وأخوه « الكاشف » ، فى مقدمة الذين تغافوا فى خدمة مصر والولاء « لعزیزها الأعظم » . ثم مات « الحكيم » . خلفه ابنه فى المعية السنية للعزیز تابعاً أميناً . ثم توالى عليه عمود ساكنى الجنان إبراهيم وسعيد وعباس وإسماعيل وتوفیق . وقد أشاد بما أثرهم فى كثير من أحداثه ومذكراته . وقد عثرت فى مخططاته على قصيدة فرنسية رفعها المغفور له إسماعیل الخديوى العظیم بمناسبة إزاحة الستار عن تمثال « البطل الأعظم » بالاسكندرية . ثم تقاعد وتوفى عن أبى الذى خدم القضاء بإخلاص

ووفاء . وكان فيه خير قدوة لإخوتي . تغمدهم الله جميعاً برحمته .
أما أنا فقد كان نصيبي ضئيلاً فاشلاً من حكومتى . رغم التضحية والتفانى .
وكان نصيبي من وطنيتى كتابي هذا ، البطل الأعظم ، . ساهمني في وضعه ابني .
وقيل إنمائه سقط الإبن مستشهداً في ميدان العلم والعمل . فأضنى الآسى
قلبي . وأحزنى الحزن كاهلي . وكاد الكتاب يدرج في عالم النسيان . لولا أن
أخذت ابنتي بذراعي مرفقة تحثني على المضي فيه . لعل مولاي ، أن يوجد
بتقبله ذكراً طيباً أخلد فيه وفاء الأباء والأجداد . لأفراد الأسرة العلوية
الأمجاد . أؤيد فيه توارث هذا الوفاء حتى بلغ طيات قلبي . وانطلق
بطبيعته على صفحات كتابي . مبهما إلى أعتاب سليلها الأكرم . وفاروقنا
الأعظم ، . الملك الرفيع الأدواح . المفدى بالمهج والأرواح .

ملك فتى . حكيم زكى . حليم وفى . ورع نقى . كريم تقى . عطوف صفى .
على جيوشنا ومصانعنا مشرف . وعلى مجامعنا ومعاهدنا مشرق . على
مضاجعنا مورف . وعلى مناجعنا مورق . على مواجعنا مشفق . وعلى
مجانعنا ممدق

ملك أمين . رزين رصين . أزال رفثنا . ولم شغثنا . وحد صفوفنا .
وثبت قلوبنا . بدد جهلنا . وسدد علمنا . دعم إيماننا . وأفعم كمالنا . وأرغم
أعداءنا . وأنعم عزنا . . وهاهو بين أظهرنا . يعمل في سبيل إسعادنا .
وتجديد مجدنا . ورفاهية أمتنا . وعظمة دولتنا .

اللهم أشدد ملكه . واسدد حكمه . وأسعد عهده . وأفعم سعده . ودعم
مجده . إلى أمد بعيد . وعمر مديد .

اللهم حقق لنا مبتغاه . وأجزل عليه متمناه . كي يحقق لنا حكيم نواياه .
ويجزل علينا كريم عطاياه .

مقدمة

أذكرت نفسك ما إن يعودا فهاج التذكر قلبا عميدا

استقر بنا المجلس . حيث الطنافس وأيرة والثريات منيرة . وقد ترأسته
أمي كعادتها في مساء كل يوم .

استمعنا لحديثها . وكان شيقاً طريفاً . لا يتطاب التفكير فيه بذلاً .
ولا التجديد عناء . وقد أثارت ذكرياتها . بعد أن تقادم عهدا . وتعدم
مهدا . فوعينا سيرا قيلت عافية . ووعينا عبرا خيات خافية . كشفها الحديث
— وبدد عنها السحب . وأرزها الذكر — وشتت عنها الغيوم . فأصبحت
حديثة . كأنها من حوادث يومنا . وكأن أبطالها ما زالوا أحياء بيننا .

نذكرهم في جاستنا الوثيرة . وضجعتنا القريرة . فيشير الذكر أشجان
القلوب الحزينة على أبطال ذهبوا . وكأنهم لم يكونوا — لولا ما خلفوا من
ذكريات . وتركوا من خيالات .

نذكرهم . فتهيم أرواحنا في الماضي البعيد . والعهد السعيد . ويختلط الحزن
بالفرح . ويمتزج الضحك بالبكاء . ويفوز الراوى والسامع على السواء .
بلذة لا تفوقها لذة الفرح المجرد من الأحزان . فيدفع الرضا الحاكى إلى المضى
في الإلقاء . ويشوق السامع إلى المضى في الأصغاء . فينطلق اللسان . وتصفى
الأذان . وتصفوا الأذهان . وتثور الأشجان .

نمت بأسرار ليل كان يخفيها وأطلعت قلبها للناس من فيها
استفتحت أمي الحديث بحمد الله وشكره . ثم تلفت إلى ابنتي وقالت :

« سأتلو عليك قصة رجل عظيم حاول أبوك أن يأخذ منها مقياس بطولة فشل في تحقيقها رغم جهوده » .

« قصة مجيدة ستروينها على حفدتك . كما أروينا الآن على حفدتي . متى أتاك مثل يومي هذا . وعرض لك مثل مجلسي هذا . وبلغت مثل عمري هذا » .

« لاتضحكي . فقد ضحكت يوم أو صاني جد أيبك في شيخوخته بأن أتلو يوما روايته على حفدتي . كما تلاها هو يومذاك على حفدته . وهامى الأيام قد ولت بين غمضة عين وانتباهتها . مرور أسراب القطا . واشتات السحب . فتحققت نبوءته » .

« بالأمس كنت أصغى لقصصه في زهرة فتوتى . وها أناذا اليوم أعيدها على حفدتي . في شيخوختي . وتدهور حياتي » .

« ولكن شأن ما بين العهدين . عهدي هذا مع الحفدة والأولاد . وعهدي ذاك مع الآباء والأجداد » .

« فيها أنتم تستمعون لحديثي في ضياء قلاند السكر بام . تظل منيرة بأهج بهاء . حتى أوفي حق من الإلقاء . وتوفون حقكم من الإصغاء . وقد أبرز عجم ما تثيره السيارات والعجلات من دوى وضجيج . وصخب وعجيج . وهى تروح وتجيء حتى مطلع الفجر . حاملة ركابا من شتى الأجناس والملل والبيئات . جلهم فتية وفتيات . من الطراز الحديث . والنوع الخيث . على حاقات الميسر والخمر يتهافتون . وعلى حلبات الرقص يتهابطون . يتسامرون فى الشجون ويتآمرون فى المجون . وقد خلع النساء خمر الصون . وطرحن حجب العفاف - وجوههن سافرات . ونحوهن وظهورهن عاريات . وقد لاعبت أنا ملهن طبيبات الموائد . توطئة لمجالات المفاسد . ثم ضربن

الحلقات بأرجلهم . لتخبرن عما تستر من زينتهن . ويعبرن عما تحذر
من عرضهن .

• أما نحن . فكنا لانسمع في الطرقات - ما بين آذان المغرب والعشاء .
سوى طرقات حوافر الخيل والحير والبغال . تحمل أمهاتها إلى بيوتهم .
متى أنموا أعمال نهارهم . وفي الساعة العاشرة أوصدت الأبواب . وأغلقت
النوافذ . وأطفئت الأنوار . وأوى الجميع إلى فراشهم : صبية وأطفال .
نسوة ورجال . وغرقوا في سبات الأبرار . وأحلام الأخيار . حتى تسفر
أنوار الأسفار . فتصبح الديكة بأذان فجرها ويزوغ شمسها . مدعمة حيلة
المؤذنين . معلنة بسملة المصلين .

• وقد كنا نستنير بالزبوت والشموع . نسمع أحاديث الأولين . وإذا
ما انتصف الليل نعست الشموع فأنعستنا . وسالت على جوانبها مدمع
فأذرتنا . ثم تضاءلت حماها فأياستنا . فإما انفضضنا وأرجأنا حديثنا لغدا .
وإما تحمسنا فعاالجنا الشموع سكرتها . وعاجلناها منيتها . فركزنا في دافئ
زفراتها وداخن عبراتها وساخن رفاتها . شموعا جديدة أضأناها . فاحيت
ليلتنا وأثارت هممتنا . وأتاحت فرصتنا . لسماع ختام قصتنا .

• وكان جدكم الأكبر يرى في هذا الإجراء قسوة وغدرا وفألا سيئاً .
فاذا تضاءبت الشموع وتداعبت حماها . ثم تداعت رفاتها . حتم تأجيل
الرواية لغدها . وأمرنا بألا نطمس أنفاسها بغيرها . خشية غضب أرواحها
المتمازجة في مادتها . المتدائبة في لهاها . إذ كان يعتقد لها شخصية تكاد تكون
جنيّة . إن لم تكن إنسيّة .

• ولطالما طرب إذا ما أنشده ابنه شعر أبي العلاء في صبرها
وابتسامها .

وصفراء لون التبر مثل جليدة على ثوب الأيام والعيشة الضحك
ترك ابتساما دائما وتجلدا وصبرا على ما نابها وهي في الهلك
ولو نطقت يوما لقالت أظنكم تخالون أنى من حذار الردى أبكى
فلا تحسبوا دمعى لوجد ووجدته

فقد تدمع الأحداق من كثرة الضحك
وزاد طربه إذا ما أنشده وصف الأرجاني لها . وهي تكشف عن
أسرار الليال . كما يكشف في حديثه عن سير الأبطال .

نمت بأسرار ليل كان يخفيها وأطلعت قلبها للناس من فيها
قلبها لم يرعنا وهو مكتمن ألا ترى فيه نارا من تراقبها
غريقة في دموع وهي تحرقها أنفاسها بدوام من تلتظيها
تنفست نفس المجهور إذ ذكرت عهد الخليل فبات الوجد يذكها
يخشى عليها الردى مهما ألم بها نسيم ريح إذا وافي يحسبها
قد أثمرت وردة حمراء طالعة تجنى على الكف إن أهويت نجفها
ورد تشاك به الأيدي إذا قطفت وما على غصنها شوك يوقها
صفر غلاتها حر عماثها سود ذوائبها بيض ليالها



تمهيد

وشمر فقد أبدى لك الموت وجهه . وليس ينال الفوز إلا المشمر
كان أبوك ولوعا بالمغامرات . شغوقا بالمخاطر . يقوم بها على متن
البحر هو جاء . مجاز فاجميته في قارب لا يتجاوز حجم الإناء . ووسع الوعاء .
فمجل خروفي عليه ضربات قلبي . وأسرع نبضات دمي . وأثار زفرات صدري .
وأسرى الشيب في جدائي . وكأنه أراد أن يجعل من نفسه بطلا مغوارا .
أو سندبادا مختارا . أو عوليسا جبارا . وقد ظن أن يجد في آخرته هو ميرا
حديثا . يصيغ عن جولاته حديثا نفسيا . يدبجه في أوديسة جديدة .
أو إلياذة مجيدة . يتهافت عليها رواد الأدب . جيلا بعد جيل . يمجدون
بطولته . ويخلدون أسطوره .

أغفل أبوك مأخذ مغامراته . ومراجع مجازاته . إستقاهها من سيرة
فتى تطورت به البطولة من فتى يتيم . إلى ملك عظيم . وطن ملكه على
ضفاف نيله . ووطد سلطانه لما فيه خير مصره وسودانه . فامتدت أفنانه .
واستتبّت أركانه . وأصبح الوادي من منبعه إلى مصبه لأسرته وأسرتهكم .
موطننا رحيبا . ومستقرا خصيبا .

أطرق سيرة البطل الأعظم . والمغوار الأكرم . فأروى لكم الشطر
القصصى الذى يكلل نشأته . ويتّوج كهولته . نسجه الخيال . حول نواة
التاريخ . وتناقلته الأفواه .

قصة مجيدة أبيع فيها عدم التقيّد بالحقيقة المطلقة إذ الغرض من التصرف
والإسهاب فيها أن نحى في النفوس حميتها . ونذكى وطنيتها . ونزهى فضيلاتها .

والقصد منها أن نأخذ بالشعبية المصرية الكريمة إلى المثل العليا في الفضيلة والإقدام والوطنية والإيمان .

« شخصية فذة . هي شخصية جنديّ كريم . نمت في موطن القائد المقدونيّ العظيم . وتحملت وزمت . ثم عبرت البحر وعلى ضفاف النيل تجملت وانجملت . »

« استقرّ في أرض مصر سلطانه . ثم وفد عليه الشقيقان يوسف ويحيى . فأفسح مأواهما . وأكرم مشاوعهما . وألحق يحيى طيباً بمعيّته . ثم مات الحكيم ، تاركاً ولده ، الإسكندر . فشمله العزيز برعايته . وأرسله في بعثة لإغنام علومه . ثم ألحقه بديوانه وجيشه وديوان خارجيته . وإذا ما تقاعد الإسكندر شرع في تحرير مذكراته . وتدوين سير عزيزه على ما رآه بعينه . وسمعه من أبيه وعمه بأذنيه . »

ثم توافقت أمي إلى ولديّ واستأنفت الحديث وقالت :

« توفي الإسكندر جدّكم الأكبر . ومع ما كتب وقصّ وترجم . فلم نعتز في تراثه إلا على رسالة شعرية وطنية باللغة الفرنسية « مصر الحديثة » . أشاد فيها بمآثر الأسرة العلوية . بمناسبة إزاحة الستار عن تمثال العزيز بالإسكندرية . »

« وقد درج أعمامكم اثر جدكم يوسف في مناصب القضاء . ثم درجوا اثره في الثرى لحكم القضاء . وقريباً سوف أتبعهم . ثم يلحقنا أبوكا . وتبقيان وحدكما — وكأني بالأسرة تذهب في الانقباض . وتمضي إلى الانقراض . من عهد « العزيز العتيد ، إلى عهد « الفاروق المجيد ، (١) . »

تري ! ما يكون شأنكما من تراثها في حماه ! وما يكون حظكما من ذكرها في قراء هذا ما أتركه لرعايته ولمشيئة الله . . . »

ثم خاطبتني مغرورة العينين . قالت .
« أودّ أن يقرتنى قلبك من سير الماضين . وقصص الغابرين . ما يدخل
التعزية في قلبي الحزين .

« أودّ أن تضع سفرا يديم ذكريات أتلوها عليك . وأزفها إليك .
لعلها أن تكون عبرة للمعتبرين . وتفكرة للمذكرين .

« مات أخوتك . ولم يبق من ذكرياتهم غير قصاصات صحف نشر فيها
نعيهم . ثم حرقها الصدا في أعماق خزانتي . وهامى الصحف تلف بها السلع
في الأسواق . ثم تمزق وتلق في القمام . وتحرق في الأفران . وقد تلحق
الخزائن قصاصاتها : إذ قريبا سوف أتبع إخوتك كما تبعوا أباك . وكما تبع
أبوك أباه .

« فهبوا جميعا . ولم تبق سيرهم حية إلا بين جوانحي . فهي رغم شيخوختي
ما زالت على صفحات قلبي مسطورة . وفي طيات نفسي مستورة . والسكن
إذا ما رحلت — ولا بد يوما أن أرحل . درجت ذكرياتهم . ونسيت
أخبارهم .

« انتز الفرصة قبل أن تضيع وأضيع . واشحذ بنفسك من
موضعك الوضيع .

وشمر فقد أبدى لك الموت وجهه وليس ينال الفوز إلا المشمر
فهذي الليالي مؤذنتك باليلي تروح وأيام كذلك تبكر
تذكر وفكر في الذي أنت صائر إليه غدا إن كنت بمن يفكر

* * *

« واعلم بأن مرارة العيش الذي يأتي الفتى في الخوف من بفتاته
والمرء ليس يخاف من ركضاته إلا لو هن دب في عزماته
« تقول إنك فشلت في المناصب والمكاسب . والجاه والمراتب . وخفقت

في المال والذهب . والعزّ والنسب . فاسلك سبيل الأدب . يسعد به من فيه
جدّ ودأب . ويتمس من عنه أردّ وحذب . واسمع حديث من فيه أجاد
وكتب . واعمل بما أوصى وخطب .

إسمع حديثي فإنه عجب يضحك من شرحه وينتجب
أنا امرؤ ليس في خصائصه عيب ولا في فخاره ريب
وشغلي الدرس والتبحر في الـ علم طلابي وحبذا الطلب
ورأسمالي سحر الكلام الذي منه بصاغ القريض والخطب
أغرض في لجّة البيان فأخـ تار اللآلى منها وأنتخب
وأجتني اليانع الجنى من الـ قول وغيرى للعود يحتطب
وأخذ اللفظ فضّة فاذا ما صغته قيل إنه ذهب
وكنت من قبل أمتري نشبا بالأدب المقتنى وأحتطب
ويمتلي أخصى الحـرمة مراتب ليس فوقها رتب (١)
أرسل أنفاس في كتابي

« ولكن يا أمّاه كم قرع قلبي قصور الأدب . فصدته صخور الريب .
وصدته عن مساه . وردّته عن مرماه . فركد كليا مقهوراً . ورقد ذليلاً
مقبوراً . وكان كلما سلك طريقاً عثراً في صخرته . وكانت العثرة قاسية ميثمة .
وما زال القلم هائبا . والأهل خائبا . وقد كاد يحبطني اليأس . ويثبطني القنوط .
لولا أن أتيتني بعبر الأجداد . وسير الأمجاد . وشرعت في قصة فريدة
ستتم باذن الله حديثها . وقد استحثتني على الأقلام قبل أن تقصف .
وعلى الأفهام قبل أن تتلف . وأعمدتني على الإرادة قبل أن تضعف . وعلى
الذاكرة قبل أن تعصف . وأرجعتني إلى الذكريات في فيضها قبل غيضا .

وإلى الصور في تجليها قبل تولد لها . وإلى الفرص في سنوحها قبل جنوحها .
وقلت لي : خذ القلم في يمينك والقرطاس في يسراك . واكتب بكلل الله
بالنجاح مسعاك . .

أما وقد تقدمت في الأعمار . وترصدت لي الأقدار . فاني أطلب إلى الله
تعالى أن يمد لي أياماً تسع كتابي . وتعب آمالي . وأخاطب الموت مستعظفاً
أمهالي .

وأيتها الموت أمهل الكاتب المسكين . ن يرسل أنفاسه في كتابه
أنا قلبي من الشباب وجسمي أنخن الشيب رأسه بحرا به
يحبون الوطن للقداء بالحسن الجزاء :

أسبر أعماق الذكريات . وأسمرض ماضى الحياة . وأقارنه بما يحيطني
من مجال . ويكتنفني من مآل . وأطلق اضميري حرية فخص نفسي . بلا تضليل
أو موارد . فأرى الخيبة في الحياة نصيب .

كنت في صباى غافلاً أو متغافلاً . متنعماً مطمئناً . لا أحمل همّاً . ولا أحفظ
ضعفنا . أتمتع بسعة العيش ودعته . وقد حسبت هذه الصورة من الحياة
دائمة ثابتة . وما ظننت أن الزمن يأتيها يوماً بمخالبه فيمزقها . ويمزق فيها
الآمانى والآمال .

مات أبى . وما زال كهلاً . وما زلنا عيالاً . فلم أكد أتحمّل فجعة موته
لولا إيماني . نحمّلتها . وما زلت أتحمّل من عواقب فقدته وشيكاً ما هدم أمل .
ومرّر عيشي . وكأن الأقدار لم تكثف بما أتتني من فاقة وعلة . وفشل وذلة .
وقد ضعف العيش بعد أن ضفنا . وكدر بعد أن صفا . فأردف خمسة منا
ثم السادس بالآب . ثم شئت شمل من بقي .

وإني بعد أربعين سنة . ما زلت أذكر مهد طفولتي في جدران قلعة

المقسيّ . وقد قست قسوة القلوب بقسوة حجارته . وقورن جبروت جالوت بجبروت عمارتها .

وقف جالوت مختالاً أمام داود الراعي الصغير الهزيل القصير الذليل . فهزم داود جالوت وأرغمه . وأذله وصرعه . أماربع المقسيّ العتيّ . فتقوى وتجبّر . وشمخ وتكبر . وقد وطىء بأسسه مهدنا . وخسف به أرضنا .

وإني وأبى الحق لا أعرف ما هي قاعة المقسيّ . ولا من هو المقسيّ . لم يكن أبى . ولا من عشيرتى . ولا من أهل حى . ولا أعلم من أى عصر أنا . ولا من أى مصر وإفانا . ليديك مهدنا — مهد الطفولة والأمل . وليزيل عهدنا — عهد البنوة المرحّة والأبوة الحانية .

أمرّ كل يوم على ربع المقسيّ . فيشير مرآه ذكرى الدار الدراسة تحت جدرانها .

« صمّ صدها وعفارسها واستعجمت عن منطق السائل »
وأعيد استبكام امرئ القيس لرفيقه . فأبكى . ولا أجد من أستبكي :
« قفانك من ذكرى حبيب وعرفان ورسم عفت أيامه منذ أزمان
أت عليه حجج بعدى عليها فأصبحت لخطّ زبور فى مصاحف رهبان
ذكرت بها الحىّ الجميع فهيجت عقايل سقم من ضمير وأشجان ،
أنير فى الذكر مهد صباى . فأرى شرفته الهيفاء . تطلّ على حديقته
الغناء . وقد حملتها عمدها . وتوجّتها طنفها . وزينتها قدورها . وطوقتها
قضبها . وقد عرّشت عليها الأشجار . وازدهرت زهورها . وزهى فى ظلمات
الليل نورها .

ثم بيعت الشرفة والدار أنقاضاً . إذ كان قدرهما انقراضاً . فصهرت
الخدائد . وقطعت الأوتاد . وأهدمت الأطناف . وأحرق الأعواد .

زالت الشرفة كما زالت دارها . ولكنى ما زلت أرى فى الخيال صورتها .
وما زلت أسمع فى الهواء أصوات الوطنية تصاعد من أركانها . فهزّ أوتار
أعصابى صداها .

عيد سعيد — لن أنساه — ما حييت وما نسيب — شاركه فيه الأمة
أميرها . فوجب على أبى أن يقرن القول بالفعل . ويدعم الشعور بالعمل .
ويجلى مظاهر الوطنية والولاء . فى دُجنه الليل إجلاله لها فى وضحة النهار .
أزف الموعد . واقترب الموكب . فاصطفّ البعض فى الشرفة . والتفّ
البعض حول قوس النصر . كل منا بمسك قبسه . ثم هلّ الأمير . تحفّ به
كرربة الفرسان . فأضيئت الأنوار . وأشعلت النيران . وهبّ من جوانب
القوس المزدان والشرفة والبستان . هتافات وأضواء . وتردّدت فى الأجواء
نداءات الوطنية والوفاء . وتحيات الإخلاص والولاء .

وفى صبيحة تلك الليلة المنقوشة فى قلبى بالنور والنار . وقفت بباب
الدار عربية جاء راكبها ليعبر عن امتنان الأمير لولاء جدير بحسن الثناء
وخير الجزاء . فقال أبى ما قاله جدى من قبل : كفى من العزاء وطنيتى
فى سبيل الوفاء لا فى سبيل الجزاء . . . كفى من العزاء أن أبثها فى نفوس
الآبناء — يحبون الوطن للفداء . لا لحسن الثناء ولا لخير الجزاء . .

الوطنية إيمان :

والحقيقة — أى أبناء الأعزاء — أن الوطنية إيمان . أكثر منها ميراث
إنسان . فقد أتى مصر — أرض الشعوب والأنبياء . وملاذ الممل والاولياء —
رجال أجداد . وفراعنة وبطالة شداد . ما أظن أجسادهم من صلصال البلاد .
لحكموها أهلها . وما أخاهم من تربها . وقد استشعروا جميعاً مصريتهم . فأحبوا
مصر . وماتوا فى سبيل حبها . ثم درجوا فى بطون أرضها .

ثم جاءها ابن طولون وكافور والاشيديد . والممزر الفاطمي وجوهود
الصقلي . ثم صالح بن أيوب الكردى فبسطوا ملكها شرقاً وغرباً وشمالاً
وجنوباً . وقد آمنوا جميعاً بمصريتهم . وحاربوا أعداء مصر فكانوا لها خيراً .
وكانوا لأبنائها ذخراً .

ثم وطىء محمد على أرضها . فاسترشف قطراتها . واستنشق نسيماتها .
واستشف بسيماتا . وأكل أمهات بقلها واحبها . فشغف بها واحبها . وأحب
أبناءها .

آمن بمصر . وسعى في إعلاء شأنها . وقد جرد سيفها في وجه سلطانها
سلطانها . طالبا حريتها حرية أبنائها . على أنه ابنها . فأصبح حقاً ابنها . رفع
سمها . وألف جيشها من أبنائها . وأنشأ رجالها من رجاله . وأنشأ رجاله
من رجالها . وبحكمة طيبة أشفى قرحها . وأدمل جرحها . وعلى أسس متينة
ودعائم رصينة شيد صرحها . . .

ولقد دب لها الهوى في فؤادى :

سألم آبائى فى خدمة مصر . وبذلوا المهج فى سبيل دعائها . وأجهدوا
النفس فى مقاصد عزتها . وقد تخالجت نسيماتها فى صدورهم . فاستراح
أنفاسهم إلى صفائها . وتوالجت أنوارها فى مقامهم . فاهتدت أبصارهم بضياءها .
وجرى النيل فى تناول شفاهم . وشرى روى مائه فشفاهم . وقد استحال
الماء دماً يجرى فى عروقهم . وينبض فى قلوبهم ويتغلغل فى كل ذرة من أجسادهم .
نهر مبارك :

دسقى وادياً بين العريش وبرقة من الغيث هطال الشايب هتان ،

فنهـر

تبارك ماؤه فتكاد أن تمحى بطهر مياهه الآثام ،

وبكاد لو رشف العليل زلاله يشقى العليل وتذهب الأسقام
تحيا البلاد بمائه فكأنه الـ روح التي تحيا بها الأجسام
وإن شابه كدر ففي أكداره صفو وفي فيضانه إنعام (١) ،
ولا ذكر شوقياً في منفاه يستجدي حافظاً قطرة من مناهل نيله :

يا ساكني مصر إنا لا نزال على عهد الوفاء - وإن غبنا - مقيمينا
فلا بعثتم لنا من ماء نهركم شيئاً نبيلاً به أحشاء صاديننا
كل المناهل بعد النيل آسنة ما أبعد النيل عن أمانينا
فيجيئه حافظ :

عجبت للنيل يدري أن بليله صاد ويسقى ربا مصر ويسقينا
والله ما طاب للأصحاب مورده ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لنا
لم تنأ عنه وإن فارقت شاطئه وقد نأينا وإن كنا مقيمينا
تناجت ضمائر أجدادى في الولاء مصر ولولاتها . وتفانت قلوبهم حباً لها
ولا بنائها . وسعت أقدامهم في خيرها وخيرها . على خصيب أرضها . وبثت
أيديهم من نفوسهم مادة حيّة في بروجها . ونفشت أنفواهم من أنفاسهم روحاً
زكية في سراجها . . .

وقد تسملت دماؤهم التي تغذت بمائها وبنبتها وهوائها ، من جد لأب . ومن
أب لابن . حتى بلغت جسدى . فدبّت في دمي . وضربت في قلبي . ثم أطلقتني
أحشاء أمي على أديم أرضها ، فاستنشقت هوائها ، واستكشفت ضياءها ،
واسترشفت في ألبان أمي ماءها ورحيق نبتها وثمرها ، فشبت في نفسي حبها ،
ودبّت في فؤادي هواها . .

ولقد دبّ الهوى لها في فؤادي ديب دم الحياة من الورق

أسرة طيبة

أب تقيّ وولد زكيّ

كان إبراهيم بن هلي - رئيس حراس قولة - من أسرة كريمة طيبة . ومع تمسكه بأهداب دينه فقد كان لا يفرق في المعاملة والمصادقة بين مسلم وناصري . فأصبح مواطنوه على اختلاف مللهم . وكان مع اخلاصه لاسلامه . يجد لذة ومتمعة في التحدث معهم . ليتعرف ما تمليه عليهم أديانهم وشرائعهم ومذاهبهم من مبادئ خلقية ، وصفات نفسية ، وليتحقق من مدى اتباعهم لها ، وتطبعهم بها .

كان إبراهيم ورعاً تقياً ، ومع استقامته واستغفاره وتقواه ، فقد كان يخشى الزواج وعراقب مسؤولياته : إلى أن أقنعه صديق وفيّ بوجوب التأهل كي يهنا أسوة به في عيشة زوجية رغيدة ، وما فتى يبدى له الحجج الشرعية والبراهين الاجتماعية والأسانيد الأخلاقية والصحية . إلى أن رضخ للنصيحة عن طيب خاطر ورضاء نفس .

كان إبراهيم سعيداً . وقد جعل الله له من زوجه زينب وولده محمد قرّة عين . ولما سكن السعادة لم تدم كثيراً . لأن إبراهيم لم يعيش طويلاً . إذ فاجأته منيته كهلاً . وما زال ولده فتياً . فحزن عليه أهل بلده . وبكاه صديقه وقد استندم لما كان يمنيّه به من أمان واطمئنان . واستبكت لما كان يرجيه له من جميل آمال ، ولما وجدته تكفيرا في التعاون مع الأصدقاء . والتضامن مع الأوفياء . على العناية بالفتى محمد . والأخذ بيده إلى قويم سبيله .

دار الحديث يوماً حول شئون محمد ، ولم يترك له أبوه إلا مالا يسيراً ،

لا يضمن سعة العيش ، ولا يدرك غائلات الدهر ، وتباحث المجتمعون في تأمين مستقبله . فتعهد إسماعيل الحاكم بالتوجيه المادي ، وأخذ ليون التاجر الفرنسي " على عاتقه التوجيه العملي " ، وساهم الصديق في الدأب على التوجيه الثقافي . فاكسب الفتى في بضع سنين خبرة عملية في الشؤون الاجتماعية والتجارية والمالية والاقتصادية : تدعمها قوة جسمانية ومناعة صحية وشجاعة أدبية ، نالها من تدريبه على أعمال الفروسية والرياضة البدنية ، كركوب الخيل وحمل السلاح والعدو والقفز والسباحة وقيادة السفن ، مع حسن المعاشرة في عقريبت طيب وأسرة طيبة ، وقد كانت الطبيعة الجميلة ، والبيئة النديلة ، والآيات الجميلة ، الأثافي " الثلاث التي نضجت عليها شخصية الفتى وبطولته وعبقريته .

الطالع السعيد

انتهى التباحث والتشاور ، فقام الصديق ، وأعلن بصراحته المعهودة وصوته الجمهوري " : إني أتنبأ لهذا الفتى الوديع الهادي " الحزين حظاً وفيراً ، وشأننا خطيراً ، قد يدرجان به إلى مصاف الأمراء ، ومراتب الصلحاء ، فقاطعه الحاكم : " أنت تهذي ، أيها الصديق ، وأذن السلطان قريبة منك قد تسمعك .

فاجابه الصديق متحمساً : " عفووا أيها الحاكم العزيز ، فمع الفارق في النبوة والرسالة اللتين أقدسهما ، ومع الفارق في الحكم والسلطان اللذين أجلبهما ، فاني أتوسم في محيا هذا الفتى دلائل عظمته وجاهه ، وأتتبع في كفه واثـ كشف في قدحه معالم عزته ونبوغه ، وأقرأ له في أوراقه حظاً سعيداً وعمرأ مديداً ، وسيصبح باذن الله رجلاً عظيماً ، وبطلاً صنديداً ، تخضع له رؤوس : وترضخ له نفوس ، وتطاف حوله كؤوس — كؤوس يتجرعها

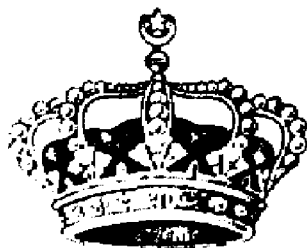
البعض سماً دهاقا ، ويرتشفها البعض تريباقا وفاقا ، وهاهو ذا يتدرج في سبيل
رشدته ، وبلوغ أشده ، في الخلق عظيما عليا ، وفي الشيم كريما أيما ، وستظهر
لكم الأيام طالعه زاهيا جليا ،

وإني والله مامست السلطان جل قدره فيما تنبأت ، رأيت للفتى محمد بن
عليّ نجما في زرقة السماء ، بزغ في الشمال ، وحام في الآفاق شمالا وجنوبا
شروقا وغروبا ، ثم يعم إلى الجوزاء ، وتركز في الأجواء
وإنطلق ميداس من أرض مقدونية إلى بعض الأصقاع ، فأنشأ ملكا .
وأحال المياه ذهبيا ، .

وانطلق الاسكندر الأكبر من أرض مقدونية إلى تترى الأصقاع .
لينشئ في دولته دولا ،

وقال أي أصقاع الأرض سينطلق فتانا محمد إثر نجمه . يستقل على اليم
فلكا . إلى حيث يستقل ملكا ، ؟

هلت في الجماعة ضجة ، وفشت فيها عجة ، فلم يسع الصديق إلا أن يتستر في
جنع الليل مقسريا هاربا .



مغامرات الصبا

ما بين السور والصور :

كان ما شاهد محمد في صباه من حوادث وصور ، وما سمع من قصص وسور ، وازعا طبيعياً حبيب إليه خوض الغمار حبه لخوض القفار . وقد قدّر أعاصير البحار كمحن الحياة حدثاً طبيعياً تتوقف خطورته وعواقب أخطاره ، على الحالة النفسية ، والجملة الخليقة ، والحيلة الفكرية ، والوسيلة العقلية .

عشق محمد جولات البحار ، ولم يبلغ بعد فتوة الأعمار ، وقد كان ولو عازب ورقه يهيم به في هدوء اليمّ وصفائه ، وفي ثورات أمواجه وعاصفاته ، وكان الزورق رفيقه الوفيّ ، وصديقه الهدى ، مؤنسه في وجيعته ، وأنيسه في فجيعته ، وفسحة حياته في وحدته ، وتعزية نفسه في خلوته ، يخوض به اللجج : صافية كانت أم عكرة ، باسمه أم كدرة ، زرقاء أم سوداء ، مستقرّة أم هوجاء ، أمينة أم غدّارة ، مطمئنة أم غرّارة .

ولطالما أنجى السفن وما حوت من رجال ، وطوت من متاع ومال ، وهي تتخبط في طيات الأمواج بركابها ، ترفعهم على أثاباجها ، وتدهورهم إلى أعماقها ، وقد قلّ المجهود عضله ، وفّت عضده ، وكانت لفحات الرياح قد مزّلت ملابسه ، وقرّحت ملامسه ، وكانت حبال القلوع والصواري ومقابض المجاديف والدفات قد قبحت كفيه ، وأيدست يديه ، وشلت رجليه . وطالما أنقذ الشباك وما حملت من أسماك هي كل رزق أصحابها ، وجلّ

غذاء أربابها . ثم ردتها إليهم بأسمائها ، بعد أن هدم التعب هته ، وهزم
النصب قوته .

ثم بلغ محمد أشده ، نخاض معارك الحياة ، ثابت الجنان ، رابط العنان ،
موقنا أنه إن نجح في دنياه فقد يكون في أخراه فاشلا ، وإن فشل في دنياه
فقد يكون في أخراه فائزاً ، موقناً أنه كما ولد فلا بد يوماً أن يموت ، وأنه
إن لم يمت غرقاً ، فبغير الغرق سوف يموت .

وما دام العيش مفروضاً ، وما دام الموت موعوداً ، فلم يكون الفرق
وزرق الفرق ، من الغرق ، ومن غير الغرق . ؟

« والبره أيام تعدد وقد رعت حبال المنايا للفتى كل مرصد ،
وكانى بالفتى محمد قد اعتبر بحكمة سيدنا على في الدنيا » تميد بأهلها ميدان
السفينة ، تقصفها العواصف في لجج البحار ، فمنهم الغرق الوبق ، ومنهم
الناجى على بطون الأمواج ، تحفزه الرياح بأذيالها ، وتحمله على أصولها ،
فن غرق فيها فليس بمستدرك ، ومن نجا منها فإلى مهلك .

وماذا سمع محمد من سور . فاستساغها واعتبر .

سمع : « وأصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون
ويصنع الفلك وكلما مرّ عليه ملاء من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا
فإننا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل
عليه عذاب مقيم ، حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل
زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا
قليل ، وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم ،
وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب

معنا ولا تسكن مع الكافرين ، قال سآوى إلى جبل يعصمى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل يا أرض ابلعى مامك وبأسماؤى ألقى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين ، ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق أنت أحكم الحاكمين . قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين . قال : رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين . قيل : يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ، (١١ - ٢٨) .

وسمع : « وإن يونس لمن المرسلين . إذ أبق إلى الفلك المشحون ، فساهم فكان من المدحضين ، فالتقمه الحوت وهو مليم ، فلولا أنه كان من المسبحين ، للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون ، فنبذناه بالعراء وهو سقيم ، وأنبتنا عليه شجرة من يقطين . وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فنعمتهم إلى حين ، (٢٧ - ١٣٩) .

وسمع : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ، فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ، وقالت امرأة فرعون قُدرت عيني لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون . وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ، وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون . وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت

هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فرددناه إلى أمه
 كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون .
 ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين ، (٧٢ - ٧) .
 وسمع : « ولقد مننا عليك مرة أخرى ، إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى ،
 أن اقذفه في التابوت فاذفه في اليمّ فليلقه اليمّ بالساحل يأخذه عدو لي
 وعدو له وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني ، إذ تمشى أختك فتقول
 هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن . وقتلت
 نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتنونا فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على
 قدر يا موسى ، (٢٠ - ٣٧) .

وسمع : « ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادتي فاضرب لهم طريقا في
 البحر يبساً لا تخاف دركا ولا نخشى ، فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليمّ
 ما غشيهم . وأضلّ فرعون قومه وما هدى ، يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من
 عدوكم ووعدناكم بجانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المانّ والسلوى . كما ومن
 طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحلّ عليكم غضبي ومن يحال عليه غضبي
 فقد هوى ، وإنّي لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى (٢٠ - ٧٧) .
 وسمع : « وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادتي إنكم متبعون . فأرسل
 فرعون في المدائن حاشرين . إن هؤلاء لشر ذمة قابلون . وإنهم لنا لغاظون .
 وإنا لجميع حاذرون . فإخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم .
 كذلك وأورثناها بني إسرائيل . فأتبعوهم مشرقين . فلما تراما الجمعان قال
 أصحاب موسى إنا لمدركون . قال كلا إن معي ربي سيهدين . فأوحينا إلى موسى
 أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلفنا ثمّ

الآخرين : وأنجيئنا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين . إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم (٢٩-٥٢) .
وسمع : « ألم تر أن الفلك تجرى في البحر بنعمة الله ليريسكم من آياته ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور . وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور (٣١-٣٢) » .

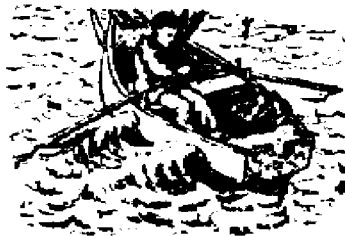
وسمع : « ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام . إن بشأ يسكن الرياح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور . أو يوبقهن بما كسبن أو يعف عن كثير (٤٢-٣٢) » .

وسمع : « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح دسر . تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر ، ولقد تركناها آية فهل من مدكر » (٥٤-١٥) .
« الله الذي سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون .

وسمع : « هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ربيع عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيئنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبشكم بما كنتم تعملون (١٠-٢٣) » .

وسمع : « ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه

كان بكم رحيمًا ، وإذا مسكم الضر في البحر ضلّ من تدعون إلا إياه فلما
نجاكم إلى البرّ أعرضتم وكان الإنسان كفورا ، أفأمنتّم أن يخسف بكم جانب
البرّ أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا ، أم أمنتّم أن يعيدكم فيه
تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا
لكم علينا به تبيعا . (١٧ — ٦٦)



مواضع الطبيعة

ثورة خطيرة في حظيرة صغيرة :

كان لزاما على الفتى محمد وعلى رفاقه أن يقودوا البط والأوز بعد ظهر كل يوم إلى القناة أسرابا ، وأعواد القصب في أيديهم ، يسوقونها في الطريق . ثم يدفعونها إلى الماء الهادئ الصافي .

تسبح الطير وتغطس وتلعب وترفرف بأجنحتها وتهز برؤوسها ، فتتغشها المياه وتنشطها ، وتزيل عن ريشها أوساخه وذبوله ، فيبدو بهيجا وهاجا . وقد يشرد بعضها في الماء ، فهناك من الصبية صراخ ومن الكلب نباح . وهناك للفتى محمد فرصة طيبة يظهر فيها بطولته . فيقفز في القارب يلاحق البط والأوز . فيشق الكلب الجو نباحا ، ويشق الماء سباحا ، وهو يتبع سيده الصغير . ثم يعود إلى البر في إثره .

تخرج الأطياف سالمة كاملة . وتتجمع أسرابا ، تجمع الجنود في صفوفها . وتعود الدليل يرشدها ، والكلب يحرسها — إلى ماواها . حيث الماء وفير . والغذاء كثير . تتمتع بالعيش القريب ، في حوشها الوثير . إلى أن يأتيها الأمر الخطير ، واليوم المرير ، والشر المستطير . فلا صراخ يجديهم — ولا صراع ينجيها ، يذب الطباخ يده العظيمة خبط عشواء في زمرتها المتطائرة ، وما وقع منها في قبضته . فلا مفر لها من إرادته . إذ لابد للسكين أن يحزن نحرها ، ويمزق دماها ، ويحزن رأسها ، إطعاما لجوعة ، وإشباعا لشهية . فتجلى في ذلك للفتى محمد عبرة شاعر الأولين :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصبب تيمته ومن تخطيء يعمر فيهم — رم

عادت الأسراب ومحمد يقودها ، والكلب يحوطها ، فأهل بها ما كان
قد تخلف منها في الحظيرة كأنه يمنحها قراها . فصرخ الأوز وتمايل .
ومد أعناقهم وتمايل . وتبخر البط وفتح فاه وصات ومرح . وأرجح
الكلب ذنبه ورفع أنفه ونبح . وهزت الديكة أعرافها وعدت . وصفق
الدجاج بجناحيه وولول . وخافت فراخه فولت . وررفت الحمام من سور
إلى سور وفزعت . وجرت الأراب من جرة إلى جرة وجزعت . ورمت
أذنيها إلى الورا وذعرت . وعلت الجلبة ، واختلطت الحلبة وعمّ الهرج .
وساد المرج . وانكسر إناء . وانقلبت دلاء . فبعثر الغذاء . وسال الماء . .
ووقفت الشاة . مضطربة متحيرة . مرتبكة متطيرة . مأمأت . ثم سكنت .
ووجمت ، وتجهمت — تعجب لم تبدلت أحوالها . وتفاقت أهوالها . ولم
تمرّج مجالها . وتخرج مآلها .

وأزاء هذا الهرج والفزع والمرج والجزع . لم يجد محمد بداً من تهدئة
الأحوال . وتأمين الأحوال . فانسحب متقهقراً . وقد أخفى عصاه في ثوبه .
وتبعه الكلب في إثره . وقد أهبط كفله . وأحنى ذنبه بين رجلبيه . وأخفض
أنفه . وأدلى أذنيه على صدغيه . فتجلت في ذلك للفتى محمد حكمة الغابرين :
« تلافى الضر إذا حمّ . وتجاوى الشر إذا عم » .



ما بين السراطين :

كان الفتى محمد في أيام الصيف الصافية يذهب مع بعض الصبية إلى جزيرة من جزائر المدّ والجزر حيث تكثر السراطين . يتصيدونها في قيط الضحى . وأقدامهم غارية تلمسها الرمال المحرقة . ورؤوسهم حاسرة يلفحها من الشمس وهج يتحدى نسيمات البحر المنعشة .

تنبّس الصبية السرطان حتى بلغ جحره وتحصّن فيه . فأتوه ماء عذبا صبّوه عليه فاختنق . إختنق لأنه يعاف العذب ويلوف المرّ . فخرج متهيّجاً رافعاً عينيه . مادّاً كلبتيه . فصرخوا وثاروا في أمره . لا يعرفون وجهة سيره . ولا يهتدون إلى سبيل تقهره . فإذا أفسحوا له طريقا وجدوه انحراف فجأة قاصداً أقدامهم . وفي أصابعها الرخصة مأخذ شيق لـكـلبتيه الحانقتين . فوللوا وتشبّثوا . خوفاً من عضته . واشمئزأوا من لمسته . وهو مازال يسعى للخلاص وهم يتبعونه . وقد أزعجوا خاطره . وخرّبوا صرحه . حتى أجهده العدو . واستقرّ والصبية يواجهونه . فجعل محمد منهم شغلا ليعنى السرطان البراقتين . وتسلسل خلفه برشاقة وأسقط على ظهره عصاه بترفق . فهبط السرطان إلى الأرض وانكش في الرمال . وسبى عينيه . وأرخی كلبتيه . فمدّ له محمد يده الأخرى ومسك ظهره المتمحجر بتمهل وحذر بين سبابته وإبهامه . ثم رفعه . فدهش السرطان من تعلقه في الجو . حيث لا يبس يجرى عليه . ولا بحر يسعى إليه . وقد لاعب أرجله الثمان كأنه وجد فرصة يبغي بها العدو في السماء إلى مداره . ليرتكز قرب حوته . ولكن سرعان ما وجد نفسه — وعلى غرة من سهوه — ساقطاً من سمانه إلى أعماق وعانه . وها هو سرطاننا المسكين مسجون بين الجدران الضيقة الملساء . إذا تسلق أنزلق . وإذا سكن اختنق . وما قىء ينزلق ويتسلق . ويتسلق وينزلق . ويحك بمخالبه جدران الوعاء . حتى كلّ ويس . وغلبه الإعياء . فحمد في القرار . ينتظر تصاريق الأقدار .

انتظر السرطان ولبد . ورقد على مابه من كمد . وإذا بزميل له يسقط
عليه من السماء . يشاركه الضراء . في قاع الإناء . كما شاركه السراء . في متسع
الخلاء . فسيح الماء . ولقد يجد في صحبته الظلماء . بعض الفرج والعزاء .
ولكن ما أن بلغ السرطان الجديد القاع . حتى اشتد الحك والصراع . فقد
جعل السرطانان يتسابقان النساق الواحد على ظهر أخيه . كل منهما يبغى
التخلص من شرّ ما هو فيه . ثم يأسان . فيلبد الجديد في أحضان القديم .
يتناحيان سوء الحال . ويقدران خطر المآل . ثم يسقط عليهما سرطان ثالث
فأربع خامس . فتزدحم الحلبة . وتخدم الحلبة . فتكون قعقة في الأركان .
وقرقة في الجدران .

ثم تبدأ الثورة . وتسكن السورة . وإذا بالسراطين منكشات . بعضهن
في بعض متعشقات . وقد أعياهن التلبط . وأجهدهن التخبط . فركدن
ورقدن يفكرن فيما عساه أن يكون مصيرهن . الخلاص إلى أعماق البحار .
أم الهلاك على جمرة النار .

كان الفتى محمد يلهو في العدو وراء السراطين مع رفاقه . يلحقون بها
ويجمعونها . وإذا ما أخذوا من اللعب كفايتهم . وأن موعد عودتهم إلى
بيوتهم لتناول غذائهم . هرولوا إلى البحر وأرقدوا الوعاء على أحد جوانبه
يطلقون للسراطين سراحها .

ولكن هبات للسراطين أن تستشعر خلاصها . وقد تكدست أجسادها .
فتخدرت حساسيتها . وتعشقت أرجلها فأنشأت حركتها . وإذا بموجة
ضخمة تسعفها رذاذا من قطراتها . فيدبّ النشاط بها . ونخرج مهرولة إلى
مساعيها . تلاحق الموجة في أذيالها . فيتشتت شملها . حرة ناجية إلى طيات
الجحها . وقد أشمرت محمداً وهي خارجة من سجنها كأنه هو المحجوب في

غياهبه . وقد أطلق سراحه بعد طول تباريحه . ليتمتع بحرية العيش في فسيح
تساريحه . فحمد الله أنه لم يكن من هاتيك السراطين ، ولا من أشباهها - من
بنى البشر المشبوهين - مجرمين كانوا أم بريئين

كان لهذا القنص البريء أثر أجلّ من الرياضة في نفس محمد ، وفي نشأة
جبلته وتكوين خلقه ، فقد علمه التحايل على مواجهة الغريم ، والتكهن
بالترقب والحيلة والحذر والدهاء

* * *

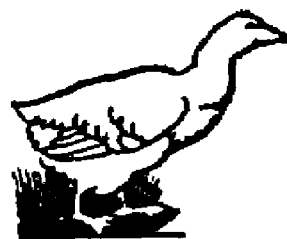
قدّر محمد في السرطان رمزا قوياً أعلى به الصدق والفضيلة على الكذب
والنفاق والرذيلة ، وأعلى الصراحة والإخلاص والوفاء على التغرير والخديعة
والرياء ، وأعلى الكرامة والشجاعة والاستهانة على الاستسلام والجن
والاستكانة

كذب العلجوم لغاية في نفسه ، وغرّر بالسمكات صاحبات السرطان
ورفقاته في المرعى والعيش . وهدّدهن في غديرهن الأمين بشباك الصيادين ،
ولا شباك هناك ولا صيادين ، وضمن لهن النقل من غديرهن الخطر إلى
غدير أمين ، مياهه عظيمة وأقصابه وفيرة ، ولا غدير هناك ولا حباب ،
ولا أقصاب ولا أعشاب

وفي العلجوم بوعدة ، فحمل في كل يوم سمكتين ، تستسلبان له آمنتين
مطمئنتين ، وقد ودّعتهما شقيقتاهما ، أملات مستبشرات ، وإذا ما انتهى
بهما إلى ربوة لا قصب فيها ولا ماء . أكلهما - أمنا مطمئنا ، أملا في السمكات
المقبلات كفاف أيامه - يوماً بعد يوم ، آنسافي وهج قشورها حياة ملؤها
الشبع والرخاء - بعد الجوع وطول العناء

ولكن سرعان ما استوحى السرطان سوء مصير السمكات خيلاته .
فقد العالجوم يوماً وأسر إليه أنه في مكانه أشفق واستوحش . وأنه يرغب في
باللحاق في رفيقاته السمكات السابقات . وتمهيد الخير لرفيقاته اللاحقات .
يشاركهن النعيم العميم والعز المقيم . في الغدير الجديد العظيم . بفضل العجولوم
الوفىّ الحميم .

حمل العالجوم السرطان . وأتى به إلى التلّ الخرب . فلمح السرطان عظام
الأسماك مجموعة ومنشورة . وحزن وابتأس . ولكنه لم يرتعد ولم ييأس .
وقد كان سريع الخاطر - زكياً . قوى الإرادة - جريئاً . علم في طرفه
عين أنه من الحق له أن يقاتل حفظاً لنفسه وكرماً لرفيقاته . قبل فوات
الفرصة . وعلى غرّة من عدوّهن عدوّه . فهوى على عنق العالجوم بكلبتيه .
وعصره فأماته . ثم تخلف إلى السمكات الناجيات في غديرهنّ . مترنخاً بين
عوامل الحزن والفرح : الحزن على من هلك . والفرح لمن سلك .
وهكذا خرج فتاناً محمد من كل لهوة بعبرة ومن كل فسحة بموعظة .
هذبت شعوره . وقوّمت رجولته . أفعمت شجاعته . وأدعمت بطولته .
وثبتت إيمانه .



بين الفجر والشروق

استيقظ محمد وسيف الفجر يقرع ترس الليل . فشتت الدياجير إلا عثراً
من الظلمة ما زال في الهواء عاثراً . وبدد السكواكب إلا نجماً واحداً ما زال
في السماء عاثراً .

غافل محمد أهل البيت وهروا إلى الزورق بضرب بمقذافيه المياه الهادئة .
فيشق الزورق زرقتها الصافية . ولم يعكر صفوها سوى دلفين مبكر ينافس
محمد السير . خشية أن ينافسه محمد الخير . يشب الدلفين من الماء إلى الهواء .
ثم يدبّ من الهواء إلى الماء . قائم الظهر ناصع البطن . وهو يتصيد أقواته
— يشب وراء الأسماك هاجماً . والأسماك تثب أمامه هاربة . وكأنها سبائك
من ذهب وفضة . تلتثر في صفاء الهواء . ثم تساقط في صفاء الماء .

ترك محمد مجداً فيه . وأراح راحتيه . يشاهد الكفاح في سبيل الحياة
والرزق والنجاة . ولم يدر بخلده بعد أن كفاح الحيوان والإنسان . شرّ من
كفاح الأسماك والحيتان والفينان .

ثم ألقى نظرة عابرة إلى الوراء . فرأى المدينة ساكنة داكنة . وقد سجت
من الليل غفلة شقتها ضياء الفجر وهي تغعم المياه الرائدة في أحضان مينائها .
وتراصت السفن كبيرها وصغيرها تتخللها زوارقها وقواربها . مسجحة
ألوانها ما بين زبرجدية الماء والسماء . شاهرة صواربها . لا تحركها نسمة .
ولا تهزّها نبرة .

والفجر يرقب من دجاء غرة متضائل من سحبه يتطلع
متنفساً فيه جنائناً واهناً في كل لحظة ساعة يتشجع
حتى ازوى الليل البهيم لضوئه وقد استجاب ظلامه يتقشع

وبدت كواكب حيارى فيه لا تدرى بوشل رايها ما تصنع
متهادلات النور في آفاقها مستعبرات في الدجى تسترجع
وكواكب الجوزاء تبسط باعها لتعاق الظلماء وهي تودّع
انشقّ الفجر تبرا انتثر في الأرجاء . وتساقط على أديم الماء . وإذا بقبة
عظيمة حمراء . تشرف شرقا ما بين الأرض والسما . على أفق زرقته معصفرة
باهتة مغبرة .

والشمس من مشرقها قد بدت مشرقة ليس لها حاجب
كأنها بوتقة أحيت يحول فيها ذهب ذائب ،
وما زالت تعلو وتصغر . وتصغرو تعلو . ويصغرو احمرارها . ثم يبيض
اصفرارها . حتى بدت ترسا من لجين مازجه عسجد . أو قرص من
نور . أضيء في مصباح من بللور .

إذا انشقّ عنها ساطع الفجر وانجلي
وقد دجا الليل وانجواب الحجاب المستر
والبس عرض الأرض لونا كأنه

على الأفق الشرقي ثوب معصفر
تجلت فيها حين يبدو شعاعها

ولم يحل للعين البصيرة منظر
عليها كدرع الزعفران يشبه

شعاع تلالا فهو أبيض أصفر
وجلمت الآفاق ضوءاً بنورها

نخراً لها وجه الضحى يتسعر ،

وإذا شوهد أديم الماء

• يظن به ذوب اللجين فإن بدت
له الشمس أجرت فوقه ذوب عسجد ،

بين الماء والسماء :

وقف محمد يمتع النظر بجمال البحر وجلاله . تمتد زرقته إلى أقاصى الآفاق .
حيث تقترن بزرقة السماء . وحيث تمتزج أنوار السحر الفضية بأشعة الشمس
الذهبية . وقد وشى الشفق نسيجه بألوانه الزاهية . وكان الهواء هادئا هدوء
الماء . تنفس محمد وكأنه يستنشق زرقتهما في حيوتهما ويستترشف حيويتهما في
زرقتهما . فسبحان من نفخ فيهما من روحه . وسبحان من منّ عليهما بتلك
الصبغة الجميلة . يرانح لها البصر وترتاح إليها النفس

قولوا ما قلتم إن هذه زرقه تكاثف الهواء وتعاكس الأجواء في
أعماق الماء . ولكن هذه الزرقه الجميلة - سواء أكانت زرقه تكاثف أم زرقه
تعاكس - من وضعها في ذاتها . ومن صبغها في مادتها . ومن حكم عليها بالتغير
والتقلب - من زرقه صافية إلى زرقه باهتة ، ومن زرقه باهتة إلى زرقه كدرة
وخضرة عكره ، وهذه المؤثرات الطبيعية - كما تسمونها - من زوابع ورياح
وأجواء وظلمات وأنوار وأنواء - من حكم عليها بالتبدل والتقلب والتغير ؟
من حكم عليها بالتحرك تحركا حكيما له مسبباته ونتائجه ومبرراته ؟

رمى محمد إلى زرقه البحر نظرة بلغت الأفق وأصعدها إلى زرقه السماء .
وكان لا أفق يفصلها عن زرقه الماء - ثم أجالها - وإذا بالفضاء عميق . وإذا
بالهواء فتيق . وقد أصابه ذهول في أغوار تلك الهوات الاثيرة السحيقة .
وكله روح يهيم في سعتها وأبديتها . سهرتها عيناه حتى كاتا . وارتدنا إلى البحر
مقهورتين واغرورقتا

تأمل أعماق البحر فاذا بصغار الأسماك تحوم تحته خلال الأعشاب

وتجول في ثنايا الرمال وحنايا الصخور - آمنة مطمئنة تبعث من أجسادها الحية بريقها الفضيّ في الماء الزبرجديّ. ساعية في رزقها. مفرجة عن كربها. في مجال فسحها

وتأمل سطح البحر وإذا به كالمرآة صافيا سويا . فشعر بما لهدوئه وسكونه من سلطان على الوجدان . واستسلم الأفكار استسلامه للتيار . وإذا ما هامت نسبات السماء أديم الماء . شجاء صفيقه . وهو يلامس زورقه ويهامسه . ثم تطرقت النسبات إلى أنفاسه فأنعشته . واستنشقه إلى أعماق صدره فأثلجته وطيبته . وكانت أنوار الشمس قد شتمت شمل الكواكب مع ليلها . فأصبحت روح محمد وحدها هي السابحة في سمائها . المسبحة باسم بارئها . في فسيح أرجائها . والمجددة بقدرة محرك الشمس في أفلاكها . وموقدها في نيرانها . ومضيئها في أنوارها . وهادئها في جوباتها وجولاتها . ومثبتها في تماسكها وتجاذبها . سبحانه خلق كل شيء بإرادته . ووفق كل شيء بحكمته . وحرك كل شيء بمشيئته . فسّير في العوالم آلاف الكواكب والسيارات . تتحرك بانسجام . وتماسك بانتظام . وتبزغ بميعاد . وتأفل بميقات . وقد أوجدنا نحن البشر الضعاف - على ذرّة من صلصال . تدور بنا حول الشمس وعلى محورها حتى تدوخنا وتهرعنا .

قناة غامرة :

مسّ المجدفان الماء مساً خفيفا . ولمسّاه لمسا لطيفا . فساير القارب الساحل تسايره ظلاله على الصفحات الصافية . إلى أن أتى خليجاً كلما ولجه محمد بقاربه ثم هادن مجدافيه . أخرجته المياه . فتوقف كي يتعرف سرّ ترنقها وخفيّ ترقرقها . تذوّقها وإذا بها مخضرمة - مزجت العذب بالأجاج . فأيقن أنه في مصب نهيرات بما أنزل الله من مزن يحيي به الأرض بعد موتها .

دخل محمد بقاربه القناة وتأمل ضفتيها . وإذا بالأرض حواليه عاليه .
تنبت الأعشاب وتخرج الأقباب : وتأوى الضفادع وتثوى القواقع .
وتوغل في القناة . وإذا بالنبت يتزاحم . وبالمدر يتراكم . وقد علت الأقباب
ومادت أوراقها المتدلية تلاعب أطرافها صفحات المياه الجارية . وشجاه نقيق
الضفادع وزقزقة الحشرات . وخرير الماء وحفيف النسبات . وتخريد
الآطيار في الأوكاز . وصرصره الجدائد . وقرقرة الهداهد .

والى محمد السير فوجد بعض صائدى السمك بمسكين بخيوطهم المنغمسة
في الماء . هادئين صامتين متبصرين . متأملين مؤملين متصبرين . مستبشرين
خيراً كثيراً . منتظرين رزقاً وفيراً . وقد وضع كل سلة بجواره . يودعها
ما يأتيه القدر من عطاء . وما يقوم به الخيط من وفاء .

سمكات غافلات وشبكات غادرات

سمكات غافلات . إذا ما لحظت إحداهن في غدواتها وروحاتها الطعم
يتأرجح في المياه الصافية . أبهرتها غضارته وسحرتها نضارته وأغراها مظهره .
فاقتربت ترمقه وتتأمله وتعجب منه . ثم حامت حوله . وقد أضلتها حماقتها .
وأعمتها غريزتها . وترغبه . وتعجب به وتشتهيه .

راودها الطعم فدر لعابها على فريسة غادرة وغنيمة ماكرة . قدرتها
رزقاً سهلاً سائغاً . وطعاماً هضمياً سائغاً . وأخيراً أضاعتها الخفاقة رشدها .
فاندفعت إليه متصبية التلقم . إشتهته فقضمته . واستساغته فحضمته . ولكن
السنار تركز في خيشومها فأوجعها وآذاها . وكلما حاولت منه تخلصاً ازداد
في فمها إيلاها وتحكما . وفي أنفها تثبيتاً وتمسكاً . لاستعصى عليها أمرها وامتنع
عليها هربها . وقضى عليها أن تموت بسعى زعانفها . ورغم خياشيمها .
حاولت السمكة النجاة - متخبطة بين يأسها وأملها . فغمزت الخيط

مراراً وسحبته تكراراً . فأشعرت صاندها هزيمتها . وأسرت ليد
الجبارة محنتها .

نشل الصياد السمكة على غرّة من عالمها الحي . وأطاح بها في هاوية الهواء .
لينفذ فيها حكم القضاء . فخنقها الفضاء . كما يخنقنا الماء . اختنقت . فارتعبت
وارتعدت . وارتجفت في الجو وترقصت . معاقة في طرف الخيط الغدار .
ولكن هيات أن يثير تلويها من عطف صاندها . وهيات أن يدرّ تحبطها
من رحمة راندها .

مدّ يده العظيمة وأمسك بجسمها الأملس الزاق . وضغط بإبهامه الخشن
على خيشومها الرقيق . ونزع السنار الفرج فها وخدشه . وهزّقه فأدماد .
تألمت السمكة فالتوت . وتوجعت فتعوجت . وهي تحاول التخلص
من أصابعه الحريصة . والتملص من يديه الخشنين الجشعين . ثم رماها في
السلة على زميلاتها . فانتفضت وقفزت . مستشعرة دنوّ أجلمها . إنتفضت .
وهيات أن يلتئم جرحها ويحقق دمها . وقفزت . وهيات أن تصل
إلى عالمها .

وما زالت السمكة ترسل بريقها المتألق . حتى أضناها الجهد . فسكنت
ويئست . وانحطت قواها ووهنت . ثم تعجلت أنفاسها . فانطفاً وهج عينيها .
إذ غشتهما سحابة - هي ظلة الموت - وما لبثت السمكة أن استلقت جثة هاءدة
على أخواتها .

• • •

استأنف محمد جولته ، يضرب سبيله في القناة . إلى أن أتى شبكة عظيمة
منبسطة على مستوى الماء من ضفة إلى ضفة ، وقد تدلّى طرف منها في أعماق
الماء من ناحية وروده ، وثبتت أطرافها الأخرى من نواح ثلاث على أوتاد
دُقت في أعماق الأرض

بأنى السمك مع ورود الماء إلى الشباك المسترسلة فيتوقف قليلا ثم يثب
لبسائر موطنه في جريه ، فيساقط على الشباك المنبسطة ، ثم يحاول العود إلى
الماء الدافق ، والتخلص من الهواء الخائق ، فيضطرب حائرا ، لا يدري كيف
يكون الماء تحته على قيد قفزة منه . ولا يكون في متناوله ، وما زال السمك
يتقلب ويتعوج ، وقد تألقت قشوره الفضية تضيئها وتلائها أشعة الشمس
الذهبية ، في ثنايا الشباك الكتانية ، حتى يعتريه وهن ، يهبط عن يمينه ، وتصبه
حشرة ترعش خياشيمه ، ثم تفارقه آخر نسمة من زفراته ، والحياة على
مدى وثبة من زعانفه .

ثم يحضر صاحب الشباك منهالما أتخفه به الحظ من خير كثير ، ورزق
وفير ، يجمع الأسماك ويحملها إلى الأسواق ، فرحا مغتبطا ، وقد حرّمها إلى
الأبد ماؤها ، لتكون طعاما سائغا وغذاء سائغا للجوع البشر . تجدى أحشائهم
مشواها ثم منتهاها .

وقف محمد يشاهد الدرر المتألقة في نزعها ، وكانت وشيكا متنعمة بوفرة
حياتها ، ترعى في مواطنها لتشبع بطونها ، فأصبحت تتخبط مختنقة في جونا
لتشبع قريبا بطونها ، رآها تتلطم في أكفانها الكتانية متعثرة ، فأشعرته
رجفتها وقفزة موتها ، بما جبل عليه البشر من شره وشر ، وكأنه سمكة
يشارك السمكات سوء حظها وخطير مصيرها ، ضاقت نفسه في الفضاء ، وضائق
أنفاسه في الهواء . فعاد أدراجه وخرج من القناة واستأنف السير يضرب
ماء البحر بما أوتى من بأس وغيظ . ناقما على صيادى السمك حانقا على آكلى
السمك . وما زال يشق سبيله في العباب الأزرق الهادى حتى كلت يداه .
ووهنت قواه

استراح قليلا ثم أدار برأسه ليتعرف مدى مسيرته . وإذا به على مرحلة

ميلين من الميناء . وقد بدا البحر أمامه عظيماً لانهاية تحدّه . تنبجس زرقة
السماء الصافية من أعماقه . وتنعكس عسجدية الشمس المتألقة على
لجين صفحاته .

توقف محمد وهو يتدبّر مغامرة تلهيه عما أصابه به مظهر السناور والشباك
من جزع . وتنسيه ما أنابه به نزع الأسماك من فزع . وقد خشى لو بقيت
صورته مطبوعة في ذهنه . معلقة في مخيلته . أن يعاف أكل السمك .
ولا يخفانا ما في شيهّا من استساغة ولذة — لذة الأنف . واستساغة للقم .
وقد سخّر لنا الله مواطنها . لتتناول منها حايا ولحماً طرياً .

شاهد الفتى محمد مأساة السمكات ، فكان له في نزقها عبرة ، وكان له في
غفلتها موعظة .



مغامرة نهاريته

استأنف محمد السير إلى جوف البحر . وقد شرعت نسيمات الضحى
تسخرن الماء فخركت أديمه . ثم هبت الرياح فهزت أعماقه . ولسكن الزورق
سار طوع إرادة الفتى . وما زالت اللجج راضخة لمقذافيه حتى ثار سخطها .
فتنفست عن كدها . ثم لفظت كيدها . واطالما أنس لغضبها . وتصيب لسخطها .
وولع بنفثات غيظها . واطالما شغف بصخب ضجائها . وشغب عجزاتها .
ثار الماء وماد . فكانت منه رواس ووهاد . ولكن محمدا وإلى الجهاد .
وقد كادت لججها تغلبه — هو الصغير الطريد في أحضانها . الشريد على
متونها . وكادت أمواجها تقلبه . بتقلب أثباجها . وقد أرغت وأزبدت .
وتضاخت وتضاخبت . وجر جرت وزم جرت .

عاصفة نائمة :

إقشعرت الأجواء . واكفهرت السماء . واهتزت الأرجاء . وثار الماء
وأغار . وهبط وغار . فكانت له ضوضاء . وكان منه رغاء . كأنه يبغى من الفتى منقلبا
خطيرا . ومصيرا مستظيرا . وما لبثت العاصفة أن تفاقمت سورتها . وتناقت
ثورتها . فارتعبت أحياء الماء والأرض والسماء — الإنسان ورجل .
والسمك ورجف . والطير هرب . وقد أصبح قارب الفتى كالسنبلة في مهب
الرياح الهاتكة . والأمواج الفاتكة .

فقد الماء صوابه وفقد صفاه . وصار عكرا كدرا . وقد هاج وماج .
فأصبحت له وهاد جارية ذات فجاج . وجبال سائلة ذات عجاج . وأضاع
مطية محمد توازنها وهى فى ثنايا اللجاج تميد . وفقدت توازنها وهى فى حنايا
الأثباج تحيد .

العاصفة غاضبة . والأمواج صاخبة . والرياح نائمة . وقد تلبدت الغيوم القائمة . تشقها البروق الالامعة . كأنها سيوف قاطعة . نشرت لتشتت ظلمات نقع بأسنتها الساطعة .

ورغم العاصفة وغضبها . والأمواج وعجتها . والرياح ورعجتها . فما زال محمد رابضاً في زورقه . واللجج تدهوره في أحضانها . وقد حرجه على أثابجها — مرغية النواصي . مزبدة القوادم والخوافي . حتى أتته موجة جبارة . صفعته فأدوخته . ولكنها لم تذله ولم تذهله . وهو ما زال رغم صغر سنه ورخص عوده . رابط اليأس . ثابت الجأش . خرج الفتى سالماً من الموجة وصفعتها . ولكنها أطاحت بأحد مقذافيه في طينها . وهشمت دفته وشتت حطامها . وانسابت المياه في القارب بعد أن تفدغ صدغه وتصدع قاعه . وهبط بين اللجج كأنه يتحسس تهادنا على نائر سفوحها . وصعد كأنه يتلمس تخلصاً على فائر طفوحها .

تناول محمد مجدافه الثاني . وجعل منه تارة جارفته . وتارة دفته . وكانت الموجة المقبلة تدفعه إلى الأمام ذراعاً . واللجة المدبرة تجرّه إلى الوراء ذراعين . وما زال في تقدم وتقهقر وإقبال وإدبار . وهو يبتعد ويبدأ عن الشاطئ المنشود . حتى أضاع مجدافه الثاني . فأصبح أعزل ضائعاً . لا طول له في غير حطامه . ولا حول له في غير إيمانه .

ثم لم يجد بداً من التحايل في سبيل الخلاص . فربط حبل قاربه إلى رسغ يده . وتحين إقبال موجة قوية ارتدى فيها . وخاض غمارها يسائر جريها . إلى أن تجاوزته . وتركته يتخبط في اللجة المتقهقرة تسحبه إلى جوف بحرها . وما زال الفتى يسائر الأمواج المقبلة . ويغائر اللجج المدبرة . دون قنوط

أو إجهاد أو هلع . إلى أن أته موجه ضخمة ، جرّته في تلايبيها ، وابتلعه في جلايبيها ، ثم أطلقته ، وإلى البرّ طرخته .

• خرج محمد الفتى من المعمعة مضعضماً ، وخرج منها القارب مصدّعا ، ولكنّ الفزع لم يجد في جناهما مجالا ، والجزع لم يجد من عنانها منالا .



بين الغروب والشفق

أذن الظهر وقد آلم الجوع فتانا محمد إثر رياضة بدنية مجهدة ، فأكثر من الطعام وكان دسماً غليظاً ، وعلى خلاف عادته — ترك الأوز والبط — وفضل قليلاً من النوم ، التماساً للراحة في يوم اشتد قيظه ، وتلهب وجهه . وقد هداً البحر وسكن ، فلم ينبث بانفظة من نسائته ، ولم يكشف عن درّة من بسائته .

شارك الجهاز الهضمي الطبيعة عمليتها ، وكان الحرّ وقيضاً ، وقد تضخمت التخمّة . وتخنمت الوخمة . فامتزجت أبخرة المياه والأرض بأبخرة مسام الجسد . ففرق محمد في نقعة من العرق . وفي نومة لا يشوبها فتيل من الأرق .

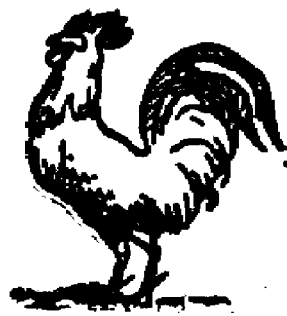
أفاق من غفلته وإذا بالشمس تشدّ رحلها للرحيل . وما أبدع رحلها . وما أروع رحلها . وقد شافه لها أديم البحار . مشافهة الليل للنهار . يمد لها سبيلها حتى تعود في الغد مبكرة الإشراق تشق فجرها . فتجلى ديجور الليل . وتشئت شمل الظلمات . في ثنايا السطعات واللمعات .

لامست الشمس أفق البحر الساكن وهامسته . وقد انتفخت أوداجها . وأحرّت سخنتها كأنها فوهة تنور نزع غطاؤه . فبدا السعير فائر اللهب . ثائر الوهج ، وقد اندلعت منه ألسنة النيران . فجمع الأفق من شتى الألوان — صارخة وباهتة — ما بين أحمر قرمزيّ وأحمر قانيّ وبنفسجيّ وأرجوانيّ وأصفر فاقع وأصفر أفتحوانيّ — مزيجاً ساحراً . يتغير ويتبدل في سبحاته تبعاً للسجحات الضوئية التي تجرها للشمس في أذيالها . وتمسح بها الأفق في أسفارها . ثم تمحى فيها آثارها .

نجر في اليمّ أذيالاً مصبغة كالخود تختال في أذيال جلاب

جرّت في اليم أذيالها . فتجلت ثورة الشفق في الأفق تجلياً يسحر الألباب .
وقد شاطرها الشمور في تضارب ألوانها ونمازجها . وسأرتها ضربات القلب
في تطوّرات سطماتها . ورددتها الأنفاس في تحورات سيجحاتها وتقلبات
سبحاتها ، وأنشدت فيها الأشجان شجى نبراتها ، ومجدت فيها الأرواح للخالق
عجيب آياته وبديع معجزاته .

تمتع محمد بمشهد رهيب فتان . نسجته الأشعة الذهبية ، وقد شرعت
تنحسر ماشرعت الشمس - تندثر بتدرج وثيد في اللجج الهادئة . تريح البشر
قليلاً من عصرها وضجها . وتريح عنهم قليلاً من حرّها ولظاها . وتترك لليل
- كما تركت للنهار قياسا ، وقد جعل الله هذا معاشا . وذاك لباسا . وهو
الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا ، (٢٥ — ٤٧)



في جنح الليل

الليل هادىء لا يزجج سكونه رغاء . ولا تحرك ساكنه أنواء . سكن
البحر وسكن الهواء . وسكن الخلق وسكن الماء .

تسرب محمد في ظلمة الليل إلى البحر مستترا . وقصد الزورق واستقله
مستترا . وتناول مجدافيه يضرب بهما الماء ويتتبع الساحل حثيثاً . وما زال
دائماً — ساعة بعد ساعة . إلى أن بلغ مصب نهر عظيم ولجه صاعداً في
مواجهة تيار فيضه العذب . متحصناً خلف الفلك الرابضة إلى البر تشق كتل
الفيض بمناسرها وتهبط من وطأتها . وتحد من شدتها . ورغم تحدى السفن
للجج فلم يكن كفاح الفتى لها هيناً . ولم يكن سبيله فيها ليناً . . توقف قليلاً .
يشرف على البرزخ — حاجر البحرين — العذب والأجاج . ويتلو في الذكر
آيات ربه البينات سبحانه : « مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان .
فبأى آلاء ربكما تكذبان . يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان . فبأى آلاء ربكما
تكذبان . وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام . فبأى آلاء ربكما
تكذبان » (٥٥ — ٥٣ — ٥٢) .

« أفرأيتم الماء الذى تشربون . أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون .
لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون » (٥٦ — ٥٨) .

ماء النهر افتن :

ماء البحر سكن . وماء النهر افتن . أفنته زاخر فيضه . وعذب عبابه .
فتبجح واغتر . وتكبر وتبختر . وصعر لوجهه للبحر المستكن وتجر . وتباهى
« أنا السيد الأقدَر » . ونسى أنه صنيع البحر الأكبر . منبع نشأته . ومرتع

فطرته . ومربع قطرته . ومنجع غمرته . . . أعماه البطر قثار . وداره على
مياه البحر وجار . فكانت له ضوضاء بعيد مداها عن الأحياء - اللهم
إلا عن أحياء الماء - فحياتهم أصبحت في هذا الرغاء حياة كرب وشقاء
وتعب وبلاء . وتصاعدت الضوضاء من الماء متكاثمة . فكاد أحياء الأرض
لا يسمعون منها سوى الأصدا - أصدا شائعة في الفضاء .
ضائعة في الهباء - اللهم إلا إذا خاضوا بقواربهم غمارها . وغامروا
بحياتهم في ذمارها .

النهر والقمر يتناحيان :

بلغ القمر ربع شهره مشرقا . لا هو بالهلال المستنير فيسمح للنجوم
بالبزوغ متلاثة في كامل وهجها . ولا هو بالبدر المستدير فيترك للسكواكب
بحال الأفول متضائلة في باهت سبلها . بل هو متردد بين هذا وذاك .
والسكواكب متعلقة متحيرة في أفلاكها ، وقد تغلغل سطعاتها في سطعاته ،
وتقلقلت لمعاتها . وتلملت لمحاتها بين البزوغ والأفوال في انحراف بزوغه
وانتصاف أفوله .

نشر القمر ذوائبه منسابة في فسيح بحاله ، ونادى بفجره ، وقد ترقرت
ضياؤه في زرقة سمائه ، ثم هبطت ناصمة فوجدت سبلها ، وقد أسفت
هياذنها في فيض النهر - انسكبت فيه فأرجفها وأرجفته ، ثم ترقرت فيه
فأبرقها وأبرقته .

تبادلت مياه النهر وضياء القمر التحبب والتلاقي ، والتصبب والتناجي ،
تجاذبتا وتصادتا ، وتمازجتا وتفرقتا ، ثم تقاربتا وتذاءبتا ، وقد هزتهما في
جريهما متحاضنتين متجافيتين ، متهابطين متناجيتين ، سكرة التذلل والتذلل .
والنشوف والنشوق ، ورنحتهما نشوة التصبب والتذوق ، والتحبب والتعشق .

لم يسمع محمد في سكون هذا الليل الرهيب سوى صرير جدد جد مختبئ في
أعماق سفينة يجاوب صرير صارية . وقد خدعت سطعات القمر في بعض
القرى ديكا أرقه النوى وحرّقه ألجوى . فصاح بأذان فجره . وهو مازال
في منتصف ليله .

ولم ير محمد إلا نجوما وهنة أضالها غمرات ضياء القمر في سمائه . ولم
ير إلا فلّكا واحداً جريئاً . هو فلّكه . يشقّ اللجين المضطرب في سطعات
جريه . وإلى ما بعد النهر رأى المنارة ساهرة في وحشة الصخر . شاهرة
مصباحها في أحضان البحر . تدير أنظارها المتألقة خلال بلوره في فسيح
مراصدها . تهيم للفلّك سواء مقاصدها . وتدخلها سالمة آمنة مراقبها .

وكان الفئار ، قد تعدى اللياقة . وتعدى اللياقة . فصّمر صدغيه
الوهاجين للقمر متحدياً . وأبرق عينه العظيمة يحيلها في الفضاء . فسبب
سهام لحاظه الألافة تسبر أغوار السماء . كأنه يهدي الكواكب المتضائلة
في أفلاكها وفق إشارته وطوع إرادته .

وما زال محمد يقاوم التيار بمجدافيه . حتى كلت يده . واحترقت كفاه .
فتلّس إلى البرّ راحه . يستعيد فيها قواه . ويمتدح الطرف بجمال الطبيعة في
غامر نجواه .

الفلّك العتي

ورغم جمال المجال . فقد هيجت الوحشة وساوس الفتى وحركت
هواجسه . وخشى عاقبة التهادى في الخيال . بعد انتصاف الليال . يستأخره
الآل . فتتفاقم الأحوال . وتتناقم الأحوال .

خاف فأقلع . وقد أنس في انحدار مياه النهر ضمان الوصول إلى المصب

وشيكاً . رفع المجذافين . وسلم القارب للتيار . فانطلق في عالم اللجين السيال .
انطلاق النفس في عالم الخيال .

شيع محمد القمر ورشح به في متاوب ظهوره خلال السحب وتحجبه .
ومتع النظر بفيض ضيائه . وإذا بخيال عظيم على بريق اللجج يهيم . هو ظل
سفينة هائلة فتحت في الجوّ أشرعها العملاقة وهي تشقّ سبيلها في مواجهته
كأنها رخّ الأساطير . نشر جناحيه متساقطاً على فريسته .

غمره الخيال الغدار . وقد انقشع عنه خيال الأشعار . واكتنفه الطود
الجبار . فتحجبت عنه الأنوار ، وحفت به الأخطار ، مقصفة الأعمار ،
ومشرّدة الأفكار .

وها هو بحارنا الفتى ، يحمله التيار إلى الفلك العتيّ ، وقد حال بينه وبين
البر حيث المياه كصفحة الزيت تجرى هادئة سوية ، وكاد يكون فريسة
قواعده ، إن لم يتحاشاه سحقه ، وقد اهتزت صارية كان لها صرير كأنه
صرخة مصروع انتزعت من ثنايا أعصابه ، ثم سمع على ظهر السفينة ضجيجاً
انحرفت على أثره قليلاً ، وترك له منفذاً يتفادها فيه

ولكن أمواجها قذفت الزورق الهائم ، فمرول كالسهم الطائش وإذا به
ينتفض على أثباج اللجج ويرتجف

غير محمد نفسه جمودها وججودها ، ونبذها نشاطها وجهودها ، ورفع
إلى السماء عينيه ، وإذا بالقمر يشق طريقه خلال السحب : « ما بالي لأستجير
بالله الذي أنار هذا القمر ولا أستجير بالله الذي سخّره ، وقد آمنت به وأيقنت
في رحمته ، يخرجني من قاربي كما أخرج يونس من أحشاء حوته ، ويخرج قاربي
من اللجج كما أخرج فلك نوح من طوفانه ،

استكشف محمد موضعه . فاذا به على دوامة يتدهور ماؤها في جوفها .
وفي هوة نهرها ووحشة ليلها .

أفاق لنفسه . وملك زمام رشده . وما زال مشرفا على حافة المياه
المتدومة . وقد شرع زورقه يدور على محوره - تصعد وتهبط . وتأرجح
وتخبط . وترنح وتلبط . فوجب عليه أن يسرع بعمل حاسم . قبل أن تستدرجه
المياه المتشنجة إلى سجالها .

علم يقينا أن لحظة تلاكو وتباطؤ تضييعه في المياه المتدهورة إلى أعماق
الهوة السحيقة . ثم تهشمه على جوانب الصخور الفتيقة .

ذكر محمد ربه . فاستجلى تبصره . واستملى تبصره . واستكمل تدبره .
فأمسك بمجدافيه مستعدا للضربة الحاسمة ، إما أنقذتنى . وإما أذلقتنى ،

ترك القارب يحرق في هوى التيار حتى واجه منسره البرّ منحرفا عن المياه
المتدومة . فضرب الماء بما أوتي من قوة وبأس ، وإذ بالقارب يندفع كالقذيفة
خلال الموج المتلطم . وبالأرض يترطم ، وفي المدر الأسود يتحطم ، ثم
خشى محمد من المياه مراوغة ومخادعة . فوثب بمسكاب زمام قاربه وقفز إلى البرناجيا .
وقف محمد هائبا حائرا ، بائر القوى خائرا ، في تلك البقعة المقفرة من
الأرض السوداء اللزجة الزلقة ، يحيل النظر وما زال مقود الزورق في يده
يناجيه في غربته ووحدته ، وقد كان كيسا في نجاته ، حذقا في نجدة .

تتبع نظر الفتى البرّ جنوبا ، فرأى القرى راقدة تحت مآذنها المتصدئة ،
وقد أطفئت أنوارها ، إذ نام أهلها . وسكت كلُّها ، وكأن السنة هبطت
على خفرائها - سنة حلوة هادئة أهبطتها ضياء القمر ، وأفعمتها جرجرة المياه
الجارية على سفوح الحجر والمدر ، وه القنار ، من بعيد يحيل أنواره في كبد
السما وفي آفاق الأرض والماء ، رأى محمد نصباح المنارة فسبغت روحه

في أنوارها ، وذكر المثل الأعلى لأنوار ربه - « الله نور السماوات والأرض
مثل نوره كشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري
يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولولم
تمسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء » (٢٤ - ٢٥)

تلفت إلى البر ، فكشفت له الضياء حصنا عتيقا أنصعته أشعة المنارة وهي
تمر متخطفة على جدرانها ، وما زالت المصاييح في النوافذ مضاءة أو متضائلة
قصد الحصن مستأنيا ، وبالأضواء مستأنسا ، وقد أمسك بالخطام ، يجربه
الخطام : الحجر خشن ، والمدر زاق ، والسكلا شحذ ، والقدم وهن ، وقد
تصبب العرق ونفحه الهواء فأصعقه ، وأهبطت وطأة الإعياء قواه ، حتى
كادت تصيبه غشية الإغماء ، لولا أن صرخت فيه نزع البقاء ، وسيرته
الغريزة إلى مرفأ الحصن العتيق ، وقد ربضت فيه الزوارق والسفن ، رآه
الحراس وإذا بهم إلى نجدته يفرعون ، وإلى زورقه المتصدع يهرعون .

رحب قائد الحصن بالفتى وأدناه منه ، وأدخله غرفة فسيحة مدت على
أرضها الطمافس وتألقت على حوائطها المصاييح والتحف ، وتكدست الوسائد
على التخوت والمقاعد ، وتناثرت الأسلحة على المناضد

دخل محمد وقد أنهكه التعب ، وأرهقه النصب ، فارتقى في مقعد وثير
الرياش ، يلتمس الراحة وينشد الدفء

دعاه القائد لتناول الطعام ، فأكل ما أشبعه ، وشرب ما أدفاه ، ثم شرع
في أن يقص عليه رحلته ، ويروي له أهوال فسحته ، فبادره القائد موبخا ،
ونهره غاضبا أو متغاضبا - « أبلغني رجالى جميع مغامراتك ومخاطراتك ،
فهم رصد عليك وعلى أمثالك من الأبطال المغرورين ، وجدوا زورقك على
شاطئ البحر مفدغا ، غداة يوم اكفهرت أساريه ، واقشمرت أعاصيره .

اكتشفوا مجدافيك . وقد بعثت حولها حطام دفتك . . وها أنت ذا اليوم
ولم ترتدع ، تأتيني في الهزيع الأخير من الليل : صغيراً شريداً . وقد تصدع
رونقك كما تفدغ زورقك ، وكادت اجج الفيض برؤسها تشبعك . وعلى
الصخور الصلدة تهشمك . .

ثم هدأ القائد وتبسط ، وقال : « ولكنى أمتدح شجاعتك ، وأشيد
ببطولتك ، شجاعة قلما أصادفها في مجالى ، وبطولة قلما أحققها في رجالى ،
وإني أراك ستواجه في مستقبلك الطويل من أهوال القفار ، ما يضارع
أهوال البحار ، تهذبك ، وتدعم خلقك . . وستشقّ - يا ذن الله - لجج الحياة
إلى عمر مديد وحظ سعيد ، بعد أن نجشمتك من المآسى وتكلفك من الصعاب
ما قد يشيب فى الشباب الناصيتين ، وما قد يحنى فى الكهولة الكاهلين . . .
والآن فارجع برعاية الله وفى حراسة رجالى إلى ذويك آمننا مطمئنا ، هيا لك
سبحانه وتعالى توفيقاً وسداداً ، وحكمة ورشاداً . فتصبح جديراً بكفاح
الحياة المرير ، فى هذا الجيل المريب والزمن العصيب .



فسح الربيع

وفي يوم صفا جوّه وحلا نسيمه من أيام الربيع الزاهر . يم الفقى محمد
إلى العاصمة . قاصداً بساينها الغناء . ورياضها الفيحاء ، مفعم القلب أمى
وحزنا ، إذا استشعر لوعة تيممه ، واستذكر حنان أبيه وأمه ، فى وطأة
ضجر وحدته ، وخطر خلوته .

ولج محمد الرياض لعله أن يجد دواء لعلته ، وشفاء لكربته ، وإذا به فى
رواق طيبعى جميل لا نهاية تحده ، صفّت على جانبيه أشجار تعالت جذوعها
وتطاوات فروعها ، متعوجة ملتوية ملتفة منحنية منثنية ، بمدة ذات اليمين
وذات اليسار . إلى أن تلاقت أو كادت تتلاقى . وقد سجت مظلّة خضراء من
الأوراق الحية ، فيها ترشقت الزهور الحمراء والصفراء ، وفيها ترقرقت فتيت
الظلال والأنوار . ثم تقطرت خلالها أشعة الشمس وانتفضت ضياؤها على
الأديم اللامع انتفاض أنوار أقباس المعابد .
تأمل محمد الرواق . وكأن الملائكة تنفحه بأنفاسها . وتنحفه بأنوارها .
وقد سمع حفيفاً خفيفاً

من نسيم كأن سراه من الأدواح مسرى الأرواح فى الأجساد ،
وقف يتنسم هذا . ويتوسم ذاك . ف شعر بالهم الذى كان جائماً على
صدره قد خفّ وشفّ ، ثم انكشف وكفّ .
تهامست الملائكة ، فهست معها نفسه مسبحة ، وتهاعدت صلواته
مع الأرج مكتورة .

خرج محمد من الرواق وإذا به في حدائق ذات بهجة ، غشيها الفجر
بفيض فضته . ثم وشيها شعاع الشمس بفيض عسجدية .
رياض غناء زينتها أحواض الورود والزهور والرياحين . خلال البسط
الخضراء ، متنوعة التكوين ، مبرقشة التلوين : منها الأبيض والأصفر
والبنفسجي . والأزرق والأحمر والبرتقالي ، ومنها ما ألف بين أكثر من
لون . ومنها ما مزج لونا بلون ، وقد تلات عليها قطرات الندى تلات
الماس في الضياء .

والطل في سلك الغصون كلواؤ رطب يصالحه النسيم فيسقط ،

والورد في سرر الغصون مفتّح متقابل يثنى على الفتاح
ضاحي المواكب في الرياض يميز دون الزهور بشوكة وسلاح
مرّ النسيم بصفحية مقبّلا مرّ الشفاة على حدود ملاح
ويعانق النسر في أغصانها كالدر ركب في صدور رماح
والياسمين لطيفه ونقيه كسريّة المتنزّه المسماح
والجلنار دم على أوراقه قاني الحروف كخاتم السفاح
وكان مخزون البنفسج ثاكل يلقي القضا بخشية وصلاح (١) ،
شاهد محمد كل هذا في مستهل ربيعہ وكأنه يردد في نفسه :

« ورد الربيع فرحاً بوروده وبنور بهجته ونور وروده
وبحسن منظره وطيب نسيمه وأنيق ملبسه ووشي بروده (٢) »
وقد أمدّه الربيع من لذات خيراته ، ومتعته نقجاته ، بما يهيج العين
ويشرح الصدر ويحيي القلب . فكأنه ينشد .

هذا الربيع يبيع من لذاته أصناف ما تهوى فأن المشتري
روح الزمان هو الربيع فيكره وانفض إلى اللذات غير مفكر
وأفرح به فلفرحة بقدومه رول الشقائق في القباء الأجر
والسكون بتمتع وخفاق الصبا يحبي القلوب بنشره المتعطر (١)
وكان أحواض الورود والزهور والرياحين صحاف وأطباق عظيمة
حوت كل مالد وطاب من ثمار شهية . مدتها الطبيعة في فاخر ولائها .
وأبدية ربيعها .

وأشجار بسطت أغصانها وارفة الأوراق متفرعة متفرقة . تتفاوت خضرتها
بتفاوت مائة حيويتها . بعضها مستدير ، وبعضها مشرشر ، وبعضها كالأكف
منبسطة . وبعضها كالشعور مسترسل . تلاءمها نسيمات خفيفة مريحة . إذا لمست
الحدود أنعشتها . أو لمست الجلود أرعشتها .
أشجار .

كان غصونها سقيت رحيقا فالت مثل شراب الرحيق ،
وقد بدا خيالها على صفحات مياه الجداول المتعرجة الملتوية الجارية خلال
البسط والأحواض . رآها الفتى محمد زكاته يشد في نفسه .

وحديقة ينساب فيها جدول طرفي برواق حسنه مدهوش
يبدو خيال غصونها في مائه فكأنما هو معصم منقوش
وشجير من كل لون غلبت عليه خضرة النماء . تخلل وريقاتها الرقيقة
أوردة رفيعة متفرعة . وآنية وأكواب زاهية الألوان . نقشت نقشا رقيقا .
ووشيت وشيا دقيقا . لا تضارعه صنعة أقدر فنان من بنى الإنسان . ركزت
في شقوق صخور صماء . زرقاء وصفراء وحمرات — أخذت من لون .

وتعزقت بأكثر من لون . فبهرت الأنظار . في ضياء النهار . كأنها كتل من
كريم الأحجار . تلالآت في ندوة الأسحار .

وقد انسابت المياه خلال البسط الخضراء . فلاعبت فضبة صفحاتها ظلال
الأغصان الممتدة . والأوراق المتلاعبة . والورود والزهور المتداعبة .
وأجنحة الأطيوار المرحه . وسبحات الأنوار الفرحه . وقد شرعت الشمس
تبدع هذا الوشي الفتان بخيوط أشعتها الذهبية .
والريح تعبت بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء .

* * *

رأى محمد هذا وذاك . وسمع حفيف الأشجار . وخرير المياه وتغريد
الأطيوار . وتذسم نفحات الأسحار . وفوحات الأزهار . فما شك أنه في
فردوس الأبرار والأولياء الأخيار .

شاهد الجنات . ولكنه لم يسترسل في هواها . تحذرها إذ ذكر مصير
آدم وحواء من اجتناء ثمرها . فلو استرسل وحاول استجلاء أسرارها .
والوقوف على خفيّ جاذبيتها وسحرها لغواها . بعد أن يكون لها قد مال
رهبها قد فتن . فتملك هي عواطفه . وتسيطر على حواسه . وتستبدّ به .
ولن يلبث أن تضعف عزيمته ، وتخضع لسلطان الهوى إرادته . يتناقم
وجداته . وتتفاقم أشجانه . ويحور ميله شغفا فحياً فمشفقاً فمياماً . فيمجر
المجال العمليّ . ويسترسل في المجال الخياليّ . فيرتد هناؤه عليه وبالا .
ولا يرجع إلا وقد أصابه منها ما أصاب شاعرا وقع في شراكها . إذ استغوته
فغواها . واستهوته فأهوها .

قضى الشاعر الأيام والليال مستلقيا على ظهره متقلبا على جنبيه . في ظلّ
دوحة طاوالت الجوّ فروعها . ثم نكست إلى الأرض أهواها . ارتمى في

ظلالها . شاردة متحيرة . يائسا متطيرة . وقد تفانى في مجال وجدانه
وجمال خياله .

تعشقا فعشقا وهام بها . ثم أخفق في حبه فابتأس . ثم لم يجد عنها سلوة
فيتس . تعس في قربها يتس . تعس في بعدها يتس . لم يكتف بما منست عليه
من ظل وريف . وخرير وتغريد وحفيف . وأراد منها المزيد . وإذا غالى
في حبه أهواها . وهو لا يعلم ما يبغى من هواها . ولم يجد بدا من أن يفنى
في أغلال جواها . ترى ماذا خشي من غوائلها ؟ حتى تدلى في جدائلها ؟



الدستور القويم

كان الصديق فصيح اللسان . طليق البيان ، وقد حتم عليه ترده إلى مصر في بعض شئونه أن يجيد اللغة العربية ويتوسّع ، فنها شفغه بها حتى حفظ القرآن الكريم . ودرس تفسير آياته . ووجد فيه للفتى محمد النابه الفطن الزكىّ خير توجيه خلقيّ ثقافيّ بجانب التوجيه الدينيّ . يصبح به مثلاً طيباً في بلده . وقدوة حسنة للمدائه .

صدق الصديق في تقدير الكتاب الحكيم . فهو على ما وصفه سيدنا عليّ بن أبي طالب - « كتاب لا تطفأ مصابيحُه . وسراج لا يخبو توقده . وشعاع لا يظلم ضوؤه . وفرقان لا يخمد برهانه . وتبيان لا تهدم أركانه . وشفاء لا تخشى أسقامه . وعز لا يهزم أنصاره . وحق لا يخذل أعوانه وهو بحر لا ينزفه المنزفون . وعيون لا ينضبها الماتحون . ومناهل لا يغيضمها الواردون . وهو معدن الإيمان وبحبوحته . وينابيع العلم وبحوره . ورياض العدل وغدرانه . وأنا في الإسلام وبنائه ، وأودية الحق وغيطانه - جعله الله رياء لعطش العلماء ، وريباً لقلوب الفقهاء ، ومحاج لطرق الصالحاء ، ودواء ليس بعده داء . ونوراً ليس معه ظلمة . وحبلًا وثيقاً عروته . ومقلًا منيعاً ذروته . وعزاً لمن انتحلّه . وبرهاناً لمن تكلم به . وشاهداً لمن خاصم به . وفلجاً لمن حاج به . وآية لمن توسم . وجُنة لمن استلأم . وعلماً لمن وعى . وهداية لمن سمى . وحديثاً لمن روى . وحكماً لمن قضى . .

جعل الصديق من الكتاب المبين للفتى دستوراً قوياً ، حفظه إياه قلباً ولساناً ، بعد أن فقهه أغراض آياته وفهم معانيها . وحضه على معرفة حقيقة

مبانيها ومراميها . وحثه على العمل بها سرّاً وعلانية في سائر شئونه الخاصة والعامة . وتنفيذ أحكامها على الوجه الصحيح في جميع مواضع الحياة ومراحلها ومرافقها - ازام نفسه وازام ربه ، وازام أصدقائه وأعدائه ، وغرمائه وأصفيائه ، وازام أهله وقومه وأمته ، وكان الصديق يجلس إليه في صديحة كل يوم وعشيته يعيد ويستعيد - « خصال حميدة اعمل بها . وعيوب بغيضة أقلع عنها . أتلو عليك آياتها . فاحفظها وتفهمها غير مشوّهة من كتابك . بلغة نبيك . خذها قدوة لك في دنياك . ومنجاة لك في آخرك - » .

ثم يردف : « أعد واستعد كلمات ربك واعمل بها ولا تنس أنه قال : « إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرّاً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور . والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصداقاً لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير . ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ، (٣٥-٣٢) ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته - أعجمي وعربي قل هو الذي آمنوا هدى وشفاء . »

ثم يقول : « أمّا ما أهلك عنه : فلا تسرق ولا تحتل في المال . ولا تقتل ولا تكذب ولا تنافق . ولا تنكث ولا تظلم . ولا تقامر ولا تخامر . ولا تسكر ولا تبتذر . ولا ترائي ولا تبخل ولا تفسق . واحذر الهوى وغرور الدنيا والفضلة والكبرياء . والتذبذب والكسل والرياء . والسخرية والعيب في الغير والتنازع بالألقاب . والظن والتجسس والاعتياب . والريبة والوشاية والتميمة والإفك والغلّ والمن والأذى . والقسوة والفظاظة والحقد والبغضاء والغيظ والتشنّي والخوف . والجحود والجهل . واذهب من السيئات إلى الحسنات .

ومن الإغراء والحياة إلى إقرار الجميل والتعفف والوفاء . ومن النزاع والعداء .
إلى الإصلاح والإخلاص والصفاء .

« وأما ما أوصيك به : فالتقوى وتطهير القلب . والاستقامة والتواضع
والحب . والعدل والأمانة والإيمان . والتوبة والاستغفار والغفران . والعفو
والقول المعروف والإحسان . والعطف والكلمة الطيبة . والبر والشفاعة
الحسنة . والشورى والمودة . وشدا زر الأخ والتعفف . والتسامح والتعشف .
والسعى الطيب في الرزق والاعتدال في العمل .

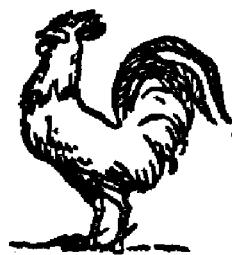
واصبر على المكاره . وأقم الصلاة وآتي الزكاة . وأدعهم بالصيام .
وأفعمهم بالاعتصام . واختتم اليوم بعد اليوم بحمد الله وشكره . « سبحانه هو
الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من
سلسلة من ماء مهين . ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع
والأبصار والأفئدة قليلاً ما تهكرون » (٢٣ = ٩) « وبوأكم في الأرض
تتخذون من سواها قصوراً وتنهتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله
ولا تعثوا في الأرض مفسدين » (٧ = ٧٤) « الذي جعل لكم الأرض مهداً
وسلك لكم فيها سبلاً » (٢٠ = ٥٣) « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده
والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة
كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » (٧ = ٣٢) . « والله جعل لكم مما خاق
ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكنناً وجعل لكم سرايل تقيمكم الحرّ وسرايل
تقيمكم بأسمكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلبون » (١٦ = ١٨) . « ومن
آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة
ورحمة » (٣٠ = ٣١) . « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من
أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله

هم يكفرون (١٦ — ٧٢) . ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف
السنين وألوانكم إن فيه ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار
وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون (٣٠ — ٢٣) يا أيها الناس
إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله
أنقاكم إن الله عليم خبير (٤٩ — ١٣) خلق الإنسان . عنه البير (٥٥ — ٤)
الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناءً وصوركم فأحسن صوركم
ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم يتبارك الله رب العالمين ، (٤٠ — ٦٤)

• • •

تلا الفقى آيات كتابه بكرة وأصيلا . ومن آناه الليل وأطراف النهار
طويلا . فرسخت فى نفسه . وتأصلت فى قلبه . وعمل بها فى سائر شئون
حياته . بمعونته الشيخ الصديق الذى أخذ بيده مترفقا إلى مجال الرجولة
بأسهل الوسائل . ومهدله السبيل تمهيدا مشوقا قويما . يهتو لكفاح اجتماعي
يتهاوت عليه تهافت الأسماك على أقواتها . دون أن تبتلع كبارها صغارها .
ودون أن تخشى صغارها بأس كبارها . ودون أن تتضم كبارها
أرزاق صغارها .

وما زال محمد يتلو آيات الخالق فى سمائه وأرضه ومائه تلاوته لآياته فى
حكيم كتابه . حتى بلغ أشده وحقق رشد . ولما بلغ أشده واستوى آتينا
حكما وعلا . وكذلك نجزي المحسنين ، (٢٨ — ١٤) سبحانه . يؤتى الحكمة
من يشاء ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا
الالباب (٢ — ٢٦٩) .



في سبيل البطولة

نواة الأسطول المصري

ما زال محمد يغامر على لجج البحار في فتوته . مغامرته لها في طفولته . إلى أن استقل يوما مع بعض رفاقه من فتيان قولة الأشداء . فلما يعبرون به البحر إلى جزيرة نائية . وما أن أقلعوا حتى فاجأتهم العاصفة . فتخوفوا وتوقفوا . وأرادوا التخلف . فتخلفوا .

أنزلهم محمد إلى جزيرة صخرية قريبة من البر . ووالى السير بمفرده في الفلك على متن اللجج الهاثجة . والأمواج الماثجة : لجج كالرواسي تخفى عن أنظاره الآفاق . ثم تكاد تبلغ به السماء . ولجج كالوهاد تهبط وتكاد تجرف قاع البحر وتهجر مواطن السماء . وقد .

« أزدبت ثم جرجرت ثم ثارت ثم فارت كما تفور القدور ،

والسفينة في هذا الضجيج العظيم والمعيج الوخيم كالريشة

« أزعج البحر جانبها من الشد فجنّب يعلو وجنب يغور ،

لاطمئنا الأمواج وهي تجشمها . وأهبطنا الهوات فكادت تهشمها . وقد

اهتزت أوتادها . وارتجت أصلابها . فتفلق صدرها . وتشقق عجزها . وتفدغ

سفلها . وتمزق قلعها . وتقصف صارمها . مؤخرها غائر بين لجتين . هذه

مدبرة وتلك مقبلة . ومقدمها معلق في الفضاء على قمة اللجة المدبرة . وقد

تطير منها الرذاذ غزيرا . وتساقط على محمد وفيرا . وهو ما زال دائبا بمجدافيه

يضرب الماء الثائر بما أوتى من ثبات وبأس . وكأنّ لازوبعة هناك ولا عاصفة .

ولا أمواج قاصفة . ولا رياح ناسفه . وكأنّ لاجابة هناك ولا ضجة .

ولا ثورة ولا عجة . وكأنّ لا فرق هناك ولا غرق . ولا إشراف على غرق .
إهتزت اللجج اهتزازاً . فجعلت المياه كالخمير تفور . وغضبت الأمواج
لجعل الزبد كالرغاء يشور .

« ثم أوفت مثل الجبال على القلـك والفلـك عزيمة لا تخور ،
تسلطت المياه من فوقه فائرة . وتفجرت من تحته نائرة . ثم تفتقت
غائرة . وما زال محتفظاً بجرئه وإيمانه . وقد أحنى التعب كاهله . وأضنى كليته .
ولم يثنه التعب ولم يخنه النصب . كافح وجاهد . جاداً مثابراً . كاداً مغامراً .
حتى حاز مبتغاه . وفاز بمتمناه .
وقد أصبح بطل طشيز المثل الأعلى لمصره . كما أصبح فلـك طشيز
نواة أسطول مصر في بحره .

نواة الجيش المصري :

وكان محمد جريثاً كيساً يوم توقف أهل بروسنة عن أداء ضريبة فرضها
الحاكم بأمر سلطانه وقد كاد يعجز عن تحصيلها منهم لولا أن تطوع محمد للقيام
بمهمتها الخطيرة . ولم يبلغ العشرين من عمره .

استصحب قوة قوامها عشرة من خيرة الرجال . وهو مؤمن بآية ربه .
« إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا
ألفاً » (٨ - ٦) ذهب محمد برجال عشرة . فغلب أكثر من ألف . وهاجم
الناظرين منهم وأخضعهم . فهرعوا إلى دار الحاكم وسارعوا في إيفاء ما عليهم
للدولة من مال — ما بين عشية وضحاها .

كافأ إسماعيل الحاكم محمدًا لما بذل من همه وحيلة وحزم . في هذا الموقف
الخطير . بمرتبة عسكرية . وزوجه من أرمل ثرية . استوظف مالها واستثمره
في الشؤون التجارية . وبمقدرته وخبرته نجح وأثرى . .

الطالع السعيد :

وفي جمع من الأصدقاء وقف الشيخ الصديق . وبصوته الجمهوري أعاد
نقبوه وأتمه . ومع الفارق في الحكم والسلطان اللذين أجلهما . ومع الفارق
في الرسالة والنبوة اللذين أقدّسهما . لا يسمنى إلا أن أعيد دلائل نبوغ محمد
بن إبراهيم بن علي . فقي اسمه محمد . باسم نبيه . بسم جميل وسيم . من الأب
والأم يتيم . لا شقيق له ولا رفيق . ماله يسير . وحاله عسير . كفله عم
ومات . بلغ رشده . ثم تجاوز أشده ما زال أمياً . وقد وعى آيات كتابه
وعيا جلياً . شرع في التجارة فنجح . ومارسها فأفلح . وزوجه ولي أمره
من أرمل غنية . استثمر ماله في التجارة فأثرت . واثري . ثم بزغ له نجم يرم
إلى الجنوب . وطاول الجوزاء وثبت وزها . وسيتبع نجمه في شتى الأمصار .
وإلى أفصى الأفطار . تنثنى له رؤوس . وتنحنى له نفوس . وتطاف حوله
كؤوس . يجرعها البعض سما كوسيا . ويرتشفها البعض رحيقاً شفيا .

ثم انبرى الشيخ إلى محمد وقال : « ومالك إذا ما زها نجمك . ووفي سعدك
وسما عزك . أن تشمل الصييين يوسف ويحي بعنايتك . وتغدقهما برعايتك
في حمى مجدك وظل جدك . وها أنا ذا أتوكأ على عصاى . متكتما لظاى .
أسير حثيثاً - رغم شيخوختى ووهن قواى - إثر أبيهما - إلى منتهى
ومشواى . ومقرّ أخراى . »

البيت المبارك :

تزوج محمد . ووهبه الله إبراهيم وطوسن وإسماعيل . وبنيتين كريمتين .
كانوا له قرّة عين . وقد فتح الله له أبواب الرزق . وأسبغ عليه من نعمه .
فتمتع بعيشة عائلية هادئة راضية في بيت مبارك من « بيوت أذن الله أن ترفع
ويذكر فيها اسمه » يسبح له فيها بالعدو . والأصا . رجال لا تلهيهم تجارة

ولا يبيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه
القلوب والأبصار . ليجزيهم الله أحسنَ ما عملوا ويزيدهم من فضله والله
يرزق من يشاء بغير حساب ، (٢٤ - ٢٦) .

مناجاة البطولة :

سمع محمد قرع الطبول . ووقع سنابك الخيول . إيذا أنا لحملة مصر . فهرع
إليها متطوعاً . غير هيب ولا جزع . ولم يجد بداً من أن يدعم فتوة طشيز
ورجولة بروسته ببطولة النيل .

تاجي نفسه . وقد رأى أن يغترب عن أرض الآباء . ويترك الزوج
والآباء . فتناوبته عوامل التشاؤم والتفاؤل . والتدبر والتساؤل . متحيراً
لا متطبراً :

« ترى . هل أفوز في رحلتى ؟ أم أموت في غربتى ؟ وهل أضمن للعيال
أوتى بعد طول غيبتى ؟ أم آمن توطيد سدتى وتوطين عزتى في غير بلدتى ؟
وهل أحقق سعادتى وعظمتى . على ما أنجلى في رؤيا والدى . وما تنبأ به
الشيخ الصديق في طفولتى . وأدعمه في فتوتى . رأى لى نجما يحوم في الجنوب
وها أنا ذا مقلع إلى الجنوب . ولكن ما انحراف النجم بين الشروق والغروب .
وتأرجحه إلى الشمال . وتركزه في سمت الجنوب . وما الكؤوس حولي تدور .
يشربها البعض مرّاً . ويرتشفها البعض رحيقاً . وما الرؤوس تغور .
وما النفوس تبور ؟ » .

« أطلقنى الشيخ الصديق وراء ميداس . ثم وراء الإسكندر . ثم وراء
قيصر . وها هو ذا يطلقنى الآن إزاء نابليون إثر نجمى . فما يكون حظى من
حظهم ؟ وما يكون نصيبى من نصيبهم ؟ وما يكون مصيرى من مصيرهم ؟ .
سبحان ربى . عالم غيبى » .

مصر الحديثة

حكم عقيم في عهد سقيم :

تأرجحت البلاد بعد فقد عاھلھا اصلاح الدين بن أيوب بين الرخاء والعناء في عهد خلفائه . إلى أن منبت بشرذمتين من الممالیک - برجيين وبحريين - ثانيتهما شر من الأولى . أفسدت مرافق البلاد : أفقرت أرضها . وأفقرت مواردها . وأرهبت أهلها . وما كادت البلاد تستردّ القليل من رقيھا في عهد علیّ الكبير - حتى نكست في عقيم حكم الممالیک ووخيم ظلمهم .

ثمّ مات أبو الذهب - عميدهم . فتنازع الرئاسة ثلاثة منهم . رست علیّ إثنين - إبراهيم ومراد - تناوبا السلطتين الادارية والحربية - مشيخة البلد وإمارة الحج . . وقد تدهورت الأمة أسوأ تدهور . وغشّتها ظلمات الجهالة . فلم تر من النور إلا بصيصاً . ثمّ أتاھا العثمانيون بغيومهم المتلبدة . فأنقطع عنها البصيص . وغاصت في بحر لجيٍّ من الظلمات .

قضت كياسة الحكم العثماني بحصر السلطة في ثلاث هيئات متنافسات متضارعات متطاحنات متشاحنات .

الوالی وكان الممثل الأعلى للسلطان . يجمع الجزية بالطرق التعسفية والوسائل القهرية . يعاونه ملتزمون يرهقون الشعب في جباية المال . للحاكم والممالیک . وللجيش . ولأنفسهم .

والديوان وكان هيئة عسكرية مؤلفة من ضباط الجيش . انكشاريين وألبانيين . وكانت لهم سلطة منافسة الوالی - وإذا شحت مواردهم نحولوا إلى الأمة بوسعونها سلباً ونهباً .

والممالك وكانوا الهيئة الحاكمة في الأقاليم . حافظ السلطان على كيانهم بعد أن دحر كبيرهم . فكانوا أداة توازن بين الوالى والديوان — لنفوذهم وسلطانهم . وكانوا أداة حكم فى البلاد — لخبرتهم الإستبدادية وأساليبهم الإرهابية .

سادت تلك الهيئات الثلاث الجبارة . فرسخت الأمة فى الذلة . ورزحت فى العلة — عسف وحيف . ورسف وسيف . ضرائب فادحة . وسخرة فادحة . وجهل وخمول . وتعرض للسطو ولوطىء الخيول . آفات وجوع . وفاقات وخضوع . أمة يائسة . شقية بائسة . لم ينج فيها من بأس الحكام إلا بعض العلماء — كانوا بمثابة الذابين عن حقها . والمتكلمين بلسانها . يستغلون الوقف بما يدرّ عليهم من خيرات . ويستغلون الأمة بما يراؤونها به من زهد وورع وصلوات . وكان العثمانيون من ناحية . والمماليك من ناحية أخرى . يتودّدون إليهم ويستخدمونهم فى تنفيذ مآربهم وتحقيق أغراضهم . ثم جاء نابليون الفرنسى لينشئ دولة فى الشرق قويّة . فوجد هيتين متناوئتين تنحفران لمناوءته: الوالى ويظاھرہ الجيش التركى . وأمرام المماليك ويمائهم بعض الأعوان والأتباع من الأهلىن . فخطب ودّ الشعب المصرى بعد أن هزم أولئك وهؤلاء . وجعل منه عنصراً طيباً يستند إليه فى الحكم .

حكم سليم فى عهد عقيم :

ولأول مرة فى تاريخ مصر الحديثة أصبح للعنصر المصرى الصميم حقّ الاشتراك فى الحكم . أو على الأقل صفة الاشتراك فيه . فقد أنشأ الفرنسيون ديواناً وطنياً عاماً من العناصر الوطنية يرأسه شيخ مصرى . للنظر فى شئون البلاد تحت إشراف وإرشاد الحاكم العسكرى الفرنسى . وأنشأوا فى الأقاليم دواوين وطنية على غرار ديوان القاهرة .

كان للفرنسيين غراماء كثيرين يناصبونهم العداوة - داخل البلاد وخارجها .
وكان قلوب المماليك لا يألون جهداً في تحريض الوطنيين - من حين إلى حين -
وبمناسبة وبغير مناسبة - يحضونهم على الثورة . ويمنونهم بالخير العميم -
إذا ما طرحوا - بالتضامن معهم ومع الأتراك وبمساعدة الإنجليز -
نير الفرنسيين الكافرين .

تحرك الوطنيون مرتين . وفي المرتين أصيبوا بشراً الهزائم . فازهقت
الأرواح . وخرّبت الديار . وأحرقت الأمصار . وأنزل الفرنسيون سخطهم
على الشعب البائس . وسحبوا منه الكثير من الميزات . وقد تخلخت الثقة .
وثار سوء التفاهم . فغشى الطرفين روح الضغينة والبغضاء . والاستخوان
والعداء . وما زال الشعب يتعلق بأذيال الآمال التي ماقت المماليك يلوحون بها
في الآفاق . حتى هزم الحلفاء الفرنسيين . واضطروهم كما اضطرتهم ظروفهم
الدولية أن ينسحبوا إلى وطنهم قافلين .

تهافتت الأمة المصرية على تلك الأذيال وتعلقت بها . فنكشها السادة
الأتراك والسادة المماليك وجروا بها أرضاً . فتمزقت الأيدي . بتمزق
الأذيال . وتمرّغت الأمة في أقدر الأحوال .

هزيمة الهزائم :

أراح نابليون جيشه على ضفاف المنزلة بعد انسحابه من بلاد الشام
بجملته . وإذا بجناح الإسكندرية الفرنسي يشعره بأن قوة تركية استقرت
من زمن غير قريب بأرض أبي قير . واحتلت مواقعها . وكان قوامها ثمانية
عشر ألف مقاتل يرأس محمد علي إحدى فرقها الألبانية .

زحف نابليون ومعه من الرجال عشرة ألف مقاتل وهاجم الأتراك وأخرجهم من معاقلهم . ودحرهم إلى البحر وأسر قائدهم . وكانت هزيمتهم من شرّ الهزائم . إذ فقدوا خمسة عشر ألف بين قتيل وجريح وأسير . وبعد شهر واحد من الهزيمة اضطر نابليون أن يرحل إلى بلاده . تاركا لغيره قيادة جيشه .

وما أصدق ما رواه الحكيم ، بصف شخصية محمد على المجيده في تلك الهزيمة العصية . قال : « كان ليون المخلص الوفي قد تنبأ بهزيمة الأتراك في مواجهة الجيش الفرنسي . وأكدها محمد قبيل إبحاره إلى مصر مع الحملة . إذ رأى بعينه نظم الجيش العثماني العتيقة وحالة عدده البائرة وأسلحته القديمة . كما علم يقينا ما بلغت الجيوش الفرنسية من تقدم ورقى مزودة بأسلحة حديثة ونظم قوية . وما تحلى به نابليون من جبالات نفسية عتيقة وصفات عسكرية مجيدة . ولطالما حذر ليون محمداً من التورط في المواقف الخطيرة والمواقع المشكوك فيها . وأوصاه بالمحافظة على نفسه وعدم التعرض لخطر أو هلاك لا يعود عليه بنفع أو نفع . ونصحه بالابتعاد عن غمار الحديد والنار . إلا لما فيه العظمة والمجد وأكليل الغار ، »

« ولقد أقنع محمد نفسه قبيل حضوره إلى ضفاف النيل أن رحلته إليها لأرفع من أن يضحي بحياته ومستقبل بيته لدولة عتيقة محتضرة . ووضع نصب عينيه إنشاء دولة حديثة فتيمة متحضرة . كما وضع نصب جانحية التراث في المواقف الرهيبة والمراكز العصية . وانهاز خير الفرص وأجلها في العمل المجدي والسعي الجدّي لتأسيس تلك الدولة الزاهية . على غرار الدولة التي شرع الفرنسيون في تشييدها . ولاكن من غير البيئة الحاكمة والقوات

العسكرية المحتلة . ومن غرقتات الأتراك والممالك والجرأكسية العائيه
فى البلاد فساداً .

بلغتنى الهزيمة . وأسرت إلى ليون مخاوفى . فطمأتنى إلى أن محمداً
لأقدر من غيره على تفادى الأذى حتى فى ميادين الوغى . لما عهد فيه من
شجاعة وثبات . وعرف عنه من حيلة ودهاء . وما لبثنا أن وصلتنا أخبار
سلامته . فكان اليوم من أسعد أيام حياتى .



« وشددنا ملكه واتيناه الحكمة وفصل الخطاب »



فازرع صوابا بالحزم والحيلة :

وما أن رحل نابليون حتى انهزم جيشه الذي تخلف عنه . إذ شرعت القوات الإنجليزية بمعونة الجيش العثماني تناوئته . وقد استعرت الحرب ثلاث سنين متوالية في ميادين كثيرة خرج منها الجيش الفرنسي مغلوبا على أمره . وفي فجر اليوم الخامس من الشهر العاشر من السنة الحادية وثمانمائة وألف أقالع الفرنسيين نهائياً عن أرض مصر عائدِينَ إلى بلادهم .

اضطر الإنجليز — بضغط العوامل الدولية — إلى الرحيل في إثر الجيش الفرنسي وقد اطمأنوا في مصر لضعف الأحكام الأتراك وتخاذلهم . ولتنازع الأمراء المماليك وتنافسهم وسوء حكمهم . ولما منيت به البلاد من ضيق وفقر وبلاء . ولما عهد في المصريين من جهل ونحول وشقاء .

إطمأن الإنجليز إلى أنه لن تقوم في مصر قائمة خيئة حاكمة قديرة رشيدة تهدد لهم إلى الشرق سبيلهم . وتقوض مكائدهم . ولكن انسحابهم لم ينسهم الحصول من الباب العالي على امتيازات تضمن لهم العود عند سئوح الفرص أو متى ساقط الأقدار لمصر بمن يناصرها . وينهض بها إلى استقلالها .

رحل الفرنسيين والإنجليز . غلَى الميدان ثانية لسادتنا المماليك بفريقيهما — ألفيين وبرديسين . وكان الأتراك ضغثاً على ابالة . وكان الشعب المصري المغلوب على أمره قد أعدم تحت سلاطنتهم . وأرغم تحت طغيانهم . ولم يتألق

بين ظهرانيه - من أجيال مضت - إسم مصرى . حتى أتاه محمد على . فحرّره
واندج فيه . وكان خير من يدمل جرحه ويشفيه . وكان عن حق وجدارة
ووفاء المصرى الأبرّ . لساناً وقلباً وروحاً : للصّلاح نوحاً . وللصلاح جنوحاً
والإصلاح منوحاً .

وفى المجال الخطير الذى خاض محمد غماره وانفسح له ليدّرب فيه حيلته .
ويدعم قوّته ومكانته . ويجلى عبقريته وحكمته . رأى أن يسير سفينته بمعونة
هيتين لن يصل إلى تنفيذ مبتغاه وتحقيق متمناه إلا بهما . أولاهما : فرقته
الألبانية التى حاربت معه فى كثير من المواقع . وثانيتها : الأمة التى أولته
حبرها إذ أولاهما إخلاصه ووفاءه . فأسند إلى الأولى مجاديف السفينة .
وإلى الثانية دفتها . وقال : « اركبو فيها باسم الله بحريها ومرسأها إن ربى
لغفور رحيم » . وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ، (١١ — ١٢) حتى أوصل
أمته إلى برها سالمة . وقد نحاشى هيتين أخريين متناوئتين - ورغم اضمحلاهما
ما زالتا جبارتين - « حكام الأتراك وأمراء المماليك » . فكان طوراً يحامل
هذه ويحامل تلك . وطوراً يحامل هذه ويحامل تلك . وكان بدهائه وحسن
حيلته يضرب الواحدة بالأخرى . حتى فاز على الإثنتين .

أمن محمد على نفسه . واطمأن لمركزه . واستأنم القوم حيث اندمج
فيهم . فأصبح منهم . وقد نادوا به والياً . بعد أن تدرج فى المجالين السياسى
والإدارى . تدرّجه فى المجالين الإقتصادى والعسكرى . خطوة بعد خطوة
إلى أن استتب له الأمر . وقد علم أن قوة الحاكم مستمدة من روح الشعب .
وأن مصلحة الحاكم مرتبطة بمصلحة الشعب . استعمل الحكمة والدهاء
طوراً . واستخدم الشدة والجفاء طوراً . إلى أن تخلص من العناصر
الفاسدة الخطرة - أو كاد . « انتهز الفرص » . وأخذ بالحيلة والحذر .

وتدبر عن صواب . فأصاب عن حق . وظفر عن علم ، وكأنه في تصرفاته
قد اتبع نصيح طاهر الحسين :

ركوبك الهول ما لم تلق فرصة جهل ورأيتك بالتغريب تغريب
قازرع صواباً بالحزم والحيلة فلن يندم لأهل الحزم تدبير
وإن ظفرت مصيباً أو هلكت به فأنت عند ذوى الآل باب معذور ،

خلع ومباينة :

قهر محمد أعداءه ، وهو ما زال يشق سبيله خلال المكاييد والفتن . حتى
فاز بالولاية . خلعها عليه العلماء والأعيان عن الأمة . والبسوه الكرك
والقفطان . ونادوا به حاكماً . غير راضين عنه بدليلاً . وما زال خورشيد
الجبار رابضاً في قلعته . رافضاً النزول عن كرسى الولاية - ولايته . بأمر
القلاحين عبدته . . .

لبس عزيز مصر الشارة بعد الشارة ، ونثر الذهب بين الناس . ثم صحب
العلماء والأعيان - زعماء الأمة - إلى خورشيد الحاكم العتيد . والوالى
العنيد . للتطيق بخلعه وإقصائه ، وكأنى بمحمد يصيح في وجهه : « لقد اتبعت
سياسة خرقاء . ووسائل حكم هوجاء . وتماديت في غي أسلافك ، فأوغرت
صدور رعيتك . وغاليت في فرض الضرائب الفادحة . وأثرت الأحقاد في
القلوب . وتماديت في التفاضى عن اعتداء رجالك على حرية القوم . وكأنك
قد تفاضيت أيضاً عن إغارة حاشيتك وتابعيك ومناصريك على أموال
الناس ومتاجرهم وبيوتهم ومزارعهم . وقد استنكرتم أغراضهم ، واستبحتهم
أغراضهم ، وافقرتم بل أجمعتم أفرادهم .

واطالما ألقت الأعيان نظرك إلى ما يعاني المصريون من بؤس وشقاء .
ويتحملون من عسر وعناء ، فأقصيت وسطاءهم . وطردت نجباءهم . وأذلت

كرمهم ونجداهم . وسميتهم بالسوقة وزعانف الرعاع والفلاحين القدرين .
فما كان منهم إلا أن استنجدوا بالخليفة فأنجدهم . ورأى أن يوليهم من يصلح
أحوالهم . ويضمن أموالهم . وينظم أمورهم . ويطمئن قلوبهم . يحقق
أغراضهم . ويصون أعراضهم . ويضاعف أرزاقهم . وقد آليت على نفسي
أن أكون أنا هذا الرجل . أعيش بين أظهرهم . فردا منهم . أحقق أمانهم .
وأشاركهم سراءهم وضراءهم . وأضحى بحياتي وحياة أبنائي وذوي قرباى فى
سبيل رفاهيتهم وسوددهم ومجدهم . وقد قطعت على نفسي عهد صدق ويمين
حق أن أجعل من هذه البلاد بلادى روضة غناء . وجنة فيحاء . تنمو فيها
أفنان الأدب والعلوم والدين والفنون . وتزدهر . تتفتح زهورها يانعة زاهية .
وتنتج ثمارها ناضجة سائغة الأكل سائغة . بعد أن استأصل من خصيب
أرضها جذور الفساد التى غرستموها أنت ورجالك وأسلافك ورجال
أسلافك . فأنبتتم فى صعيدها الطيب خبيث زرعكم . قتاداً يمزق الأجساد .
وحفظلا يفتت الأكباد .

وكأنى بخورشده يتغرس الوجوه صارخا . خستتم أيها الثائرون المغرورون .
ولسوف أؤدبكم أنتم وهذا الضابط الغرّ لتخطيكم عرني دون أفنى . وتهجمكم
منيع حصنى دون أمرى . وقد تحديتكم يمينى أن أعمل السيوف فى رقابكم .
والحق الختوف فى أعقابكم .

وكأنى بمحمد يجيبه فى تؤدة وهدوءه وإباءه وشمه . لا تعب سيوفك
وحاملى سيوفك . لقد تأليت عليك الأمة - وكنت لاتعمل لها حسابا - بعد
أن أرهبتها وأفقرتها وأجمعتها وأذللتها - حتى عيل صبرها . ونفذ جلدتها .
وها أنا ذا بمعونة علمائها ومشورة جما بذتها . أكافح من هذه الساعة الرهيبة
والظروف العصيبة مطارق الظلم والارهاب وأقاوم معاول الهدم والخراب .

ما وجدت إلى ذلك سبيلا . وسيأتيك قريبا من يبشرك بما يرضيك . ومن
يغنيك عما يؤذيك . ويوفر عليك ما لا يجديك .

وما كاد محمد يتم كلامه . حتى دخل مبعوث السلطان يقرئ الجميع
السلام . ويتلو على خورشيد أمر خلعه وترحيله . وإذ سمعه كاد الدهول أن
يقضى عليه غما وأسى وحقدا وغيطا .

ثم بايع وكلاء الأمة محمداً بن إبراهيم بن علي الولاية جزاين . وحيوه
فرحين . وهناؤه مستبشرين . على أنه ابن مصر البار - عزيزها ومحررها
وحامها .

• • •

لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها . إن كنت شهما فاتبع رأسها الذنبا
ناصر الانجليز البرديسي . واستصحبوا إلى بلادهم الألفي . أكرموا
وفادته . وأغدقوه بالعطايا . وهم يمنونه بالسيطرة على مصر وتولى
زمام حكمها .

ولكنهم ما فئوا أن أصبحوا في شغل لمواجهة الفرنسيين في الميادين
الأوروبية . فتنفس محمد على الصعداء . حيث تخلص منهم . وتربص لأفعيين
ما زالنا تنفثان السموم . وتثيران الهموم . وكانهما أصبحتا بمثابة ذنين وجب
أن يتبعاً رأسهما . فتعقبهما حتى أقاصى الصعيد لسحقهما .

ولكن - ما لبث أن بلغه أمر نزول حملة إنجليزية بالاسكندرية . كانت
بلا شك قد أتت بدعوة سابقة من الألفي لمعاونته على استرجاع سطوة طائفته
والقضاء على سلطان محمد والحد من نفوذ الفرنسيين مؤيديه ومناصره .

أصيبت طلائع الإنجليز على غرة منهم بشرّ الهزائم . وأفرادها آمنون

مطمئنون . يتزهون في أحياء المدينة ويتفثون في ظلال أشجارها . وقد جهلوا ما خبأ لهم القدر من حظ مضر . ومصير مرير .

وإذ بلغت محمداً كارتهم تباطأ في الصعيد متردداً . ثم لم يجد بداً من مواجهتهم قبل أن يأتيهم مدد يثبت أقدامهم . ويدعم مراكرهم . فعاد إلى القاهرة يميناً . أموره لمعاومتهم . ويدرب جيوشه على النظم الحديثة . والأساليب السليمة . وما قى أن هاجمهم وتغلب عليهم ودحرهم ، فأقلعوا إلى غير رجعة وقد ينسوا من تحرك المماليك وفاءً لعهودهم .

ولأول مرة آثر المماليك الخلود إلى السكينة . ويبدو لأول وهلة أنهم بدوا المصلحة القومية على المنفعة الشخصية . ولكن الواقع أن سكينتهم هذه لم تكن بريئة ولوجه الله . بل كانت في مقابل امتيازات منحها لهم العزيز قبيل انسحابه من الصعيد وذهابه لمواجهة الإنجليز .

انتصر العزيز على الإنجليز في أرهب المواقف . وأصبح حقاً بطل مصر . وحارس ذمارها وحاميها . ومالت إليه قلوب المصريين ميلاً فطرياً بريئاً ، وأقبلوا على الضرائب يدفعونها عن طيب خاطر ورضاء نفس . كي يشرع في إصلاحاته وإدارة شئون بلادهم وفق مصالحهم . ويؤسس حكومة قومية قوية تنهض بأعباء الحكم . وتزود عن حرمتهم وتقهر أعداءهم . سواء أكانوا خارج أرضهم . أم في عقر ديارهم .

تخلص من الإنجليز . فوجب عليه أن ينبري إلى المماليك . ينازلم جهاراً أو خفاء . ليتخلص نهائياً منهم . فيتفرغ لتنظيم أمور بلاده — آمناً مطمئناً .

وما أجمع ما استسخر من وجدان . وما أوجع ما استشعر من أشجان واستحذر من خذلان . يوم لم يجد بداً من إقناء المماليك للإنتهاء منهم .

بعد أن عجز عن تأمين البلاد من شرهم بهزمهم أو إقصائهم . وهم ما زالوا يعيشون فيها فسادا بتضامن السادة الأتراك وبعض الألبانيين وكانوا قد يتواله المسكايد إذا ما أقلع إلى البلاد العربية لإخضاع الوهابيين الذين بلغ بهم البأس أن هددوا الشام . ولنصرة جيوش السلطان الذي بلغ به اليأس أن استنجد بمحمد .

من أحكم حكم محمد التريث وانتهاز الفرص . وتحين المناسبات . فأرجأ الحملة . ريثما يدبر الحيلة . وتقدم إلى السادة الممالك يتودد إليهم . ويظهر لهم رضاه عنهم . وعطفه عليهم . وقد أقطع كبيرهم الجيزة والفيوم . ومدتهم بالمنح والعطايا . وأغدقهم بالقصور والرياض الغناء . وأسند إليهم الكثير من مرافق البلاد .

لإستئمانهم . فاطمأنوا إليه . وهم ما زالوا متآمرين عليه .



« إنا اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها »

• • •

ضربة حاسمة في مناسبة باسمه .

في مساء يوم الخميس الثامن والعشرين من الشهر الثاني للسنة الحادية عشرة
وثلاثمائة وألف قفل الحكيم ، إلى بيته متأخرا . بعد أن أجهده نفسه في
معالجة مرضاه . وكان أخوه يوسف في انتظاره . شاخب البشرة . منقلب
السحنة . يقيس الغرفة بخطوات وثيدة . والسبيحة في يديه خلف ظهره وهو
لم يجلس لحظة على مقعد . ولم يقرص برهة على وسادة .

رأى الحكيم أخاه مضطربا فتراجع مذعورا . ولكن يوسف لم يهمله
وأقبل عليه وبادره بصوت خافت متهدج . « ما أخبارك يا يحيى . هل من
جديد ؟ هل حظيت برؤيه العزيز اليوم ؟ وكيف أحواله ؟ وماذا كانت أقواله ؟
ألم يسر لك شيئا ؟ ألم يفصح لك عن شيء ؟ ألم تتلمس سيئات السكابة على وجهه
ونبرات الخيرة في صوته ؟ ألم تستكشف نزوات التفكير في حركاته وسكناته ؟
ألم تستشف لمحات الخذر أو الشرود في نظراته ؟ » .

« ألم يصادفك طيلة نهارك بعض الممالك أو أتباعهم أو زعائنهم ؟ ألم
يحاطبك أحد في صددهم أو في صدد أحوالهم وصائرهم ؟ وهل أنت مطمئن
ومتفائل لشيء ؟ أم أنت متخوف ومتشائم من شيء ؟ ... » .

وما زال يوسف ينهال بالأسئلة حتى ضاق به أخوه وقاطعه : أرهقني
يا يوسف بأسئلة لا تنتهي ولا أفهم لها معنى ولا أعرف لها قصدا ولا داعيا
— إلا أن يكون قد أصابك مس أعضائك وصوابك وأفقدك رشداً وأخبل
عقلك . . .

« العالم بخير . والعزيز هاديء مطمئن . ورجال معيته - كبيرهم وصغيرهم -

آمنون راضون . والقوم كلهم على أحسن حال . يحيثون ويذهبون . ويجولون
في الأزقة والطرقات . والخيول والبغال والخيـر تحمل أصحابها إلى مساعي
أرزاقهم وقضاء حاجاتهم . والأسواق مكتظة بالسلع مزدحمة بالباعة والمشتريـن .
مطمئنين فرحين مستبشرين .

أما السادة الممالك فقد رأيتهم عمتطين صهوات جياهم العربية الجميلة
تزيناها الحلل الفضية والذهبية والأحجار الكريمة . وما زالت عماماتهم وأكمامهم
الحريرية تتطاير في الهواء . ومعاطفهم وجبههم الصوفية تزهر بالفراء .
وما زالت أحزمهم المرقشة تطوى في ثيابها أسلحتهم المزكرشة . وما زالت
أحذيتهم تدوى وممايزها تضوى . وقد زاولت الخيلاء نفوسهم . وطاولت
الجوزاء رؤوسهم . وارتسمت على جباههم دلائل النعيم والعزائم . تمايرت
وجوههم . وتصاعرت خدودهم . وشعت شذرات الكبر والغرور من مقامهم .
تغايـدت أعناقهم . وتمايدت قامتهم . ونمايست أعوادهم . وقد أرجحت الخيلاء
أجسادهم ما تأرجحت أكفـال خيولهم من تحتهم . فما بواعث اضطرابك ؟
وما وداعي اكتئابك ؟

وإذ لم يحبه يوسف بشيء أغلق الأبواب والنوافذ وأسدل الستائر .
وكان البرد قارساً . والريح زمهريراً . ثم أوقد المدفئة وأنار المصباح . وألقى
الوسائد الناعمة على البساط الوثير . وامتد عليها . وأسند جبينه إلى كفه
وأغرق في تفكيره . فرقد يوسف ازاءه وأطرق متردداً بين عاملين خطيرين :
هل يفرج عن كربة نفسه . فيقصّ على أخيه سرّاً هائلاً يهر صدره ويخفيه
ويرعبه . أم يفرج عن كربة أخيه فيستمع إلى بواعث تفكيره . وأخيراً
فضل الصمت على الكلام فسكت .

السرد الرهيب .

سكت يوسف . فرفع الحكيم رأسه . وطلب إليه أن يجيبه على سؤاله .
ويفصح عن سر انزعاجه .

قال يوسف - وقد شجبت بشرته . وشردت نظراته . وخرج صوته من
أعماق صدره كأن نزعات الموت تتخلله . - خطر لى بعد ظهر اليوم أن أسير
كما دق عند سفح الجبل . تحت جذران الفلعة . وكان شعاع الشمس دافئاً
والجو - رغم الشتاء - صحوها هادئاً . تهاديت فى طريق أفكر فيما عساه أن
يكون الأمر من حفلة الغد بتقليد طوسن الفتى قيادة الجيوش المصرية الذهبية
إلى البلاد العربية . وكان الطريق قفراً . ثم تلفت ظهراً . وإذا بشرذمة من
الجند تطبق عليه وتطوقه . فأسرعت الخطأ ناجياً من موقف لم أتوقعه ولم
أكن أظنه خطراً . هارباً من مأزق لم أكن أحسبه خطيراً . .

واقذ سمعت خلال منافذ الأسوار الشاهقة ضجة كأن أجهزة جهنمية
تنصب فى كل صوب . وتزايد ارتباكى وخشيت المرور إلى - باب العزب -
ثم هدنى جنديّ كمال العدة بويلات الأمور إن لم أفلح وأسرع العبور .
فلم أجد بدا من الفرار . وعدوت وكدت أضل السبيل وأنا فى أشد حالات
الحيرة والفرع . وإذا ما أسدل الليل ظلمته تلبدت الغيوم فأصقنى الهواء
بنفحته ولفحته . وضعضنى البرد بعضته وصفعته . ثم وهنت قواى . وكلت
رجلاى . فازويت خلف صخرة صلبة تثير صدى الأصوات . وارتيمت
على الأرض الندبة استعيد نشاطى استعداداً لاستئناف سبيل نجاتى . ثم
سمعت طرق أقدام ثقيلة ماشككت من انتظام ضرباتها أنها خطوات ضابطين
عظيمين . ورغم البرد القارس فقد تصبب منى العرق . إذ تأفم على قلبى الفرق .

وكنتم أنفاسى خشية أن يسمعا زفراتها . فيكشفنا موضع انزوائى .
ويكون مصيرى المحتوم فنائى .

ثم سمعت أحد الرجلين يخاطب رفيقه بلغة تركية لهجتها ألبانية ، لا مفر
من ذلك يا صديق . فهمى إرادته . وهو كما تعلم — إذا أراد فعل . ولا مرد
لإرادته . وفى هذا الممر الصخرى . لا مفر لهم من الحكم المحتوم والقضاء
المبروم . هنا فى هذا الممر الصخرى ثم تباعد الصوت — صوت
الكلام . وصوت الأقدام — واختفى

« إطمأنت على نفسى . فهرولت كالفريسة الناجية من مخالب سباعها .
أزحف على يديّ وركبتيّ . إلى أن بلغت منفذ خلاصى . وقد تفككت
عمامتى واتسخت . وتمزقت ثيابى وتهللت . ونجرت ركبناى . وتقرحت
يداي . وتبرحت قوائى »

« وإنى كلما ذكرت مأساة يومى . تمثلت مأساة غيرى فى غدى . فانقبض
صدرى . وانتفض قلبي »

سكت يوسف برهة . ثم استأنف الحديث قال : « إن العزيز لمقدم على
مكيدة خطيرة — قد يفوز بها . وقد يتعثر فيها . فإذا فاز — كان بها . وإذا
تعثر وفشل — ضاع . وضعنا . »

« إذا تعثر فلا شك فى منازلة تهلح منها القلوب . وتشقّ فيها الجيوب .
وتدقّ فيها الترائب . خلال الانقاض والخرائب . منازلة تقشعر منها الأبدان
وتصطك منها المفاصل والأسنان . وتشيب من أهوالها نواصى الولدان .
منازلة رهبة تخضب دماؤها — لا ذلك الممر الصخرى لحسب . بل تسيل
أنهر إلى أقاصى البلدان . »

« لم لا يحاربهم جهارا . وقد أصبحوا شر ذمة متخاذلة ضئيلة فلّ حديدها .

وذلك عميدها . وقلّ عديدها . وعلّ مديدها ؟ .
 ، لم لا يقاتلهم كما يقضى الشرع - وله من رجاله أبطال صناديد يزعمون
 السفر إلى البيده - لا يرهبون الوغى في المهامه الجرداء . حتى أقاصى نجد
 وصنعاء . وقد ورد في الكتاب ما يبرّر مقاتلتهم - « وقاتلوهم حتى
 لا تكون فتنة » (٢ - ١٩٣) .

« ولكن سبق السيف العزل . ولا رادع لمن إذا قال فعل » .
 فبادره يحيى قائلا : « لقد ضاق بحال الأمل . وضاع منال الحيل .
 بتفاهم العلال . وتناقم الغلال . والحق أن البلاد قد ضجت من هؤلاء القوم
 المسكرة الخونة . وقد بلغت أعمالهم حدّ السفه والابتذال . حتى ضجّ منهم
 الموتى في قبورهم . ماضج الأحياء في دورهم - وهم مانصحناهم لا ينتصحنون .
 وما أرضحناهم لا يرتضحنون . فأصبحوا لا يصلحون إلا لشيء واحد -
 « حصدهم في لحظة واحدة . بطلقة واحدة . فيستريحون ويريحون » .
 « هزّ يوسف رأسه وقال : - « دعنا يا يحيى من الحيلة والغرّة اللتين
 لا أقرهما . وقل لي ما العاقبة لو لم أكن أنا يوسف الكاشف المحتجب
 والمستمع إلا أنها المحنة الناكبة - ناكبة الدور والأحياء . والإحنة الساكبة -
 ساكبة الدموع والدماء . وما أدراي أن غيري لم يكن متسترا ومنصتا .
 أو أن ذينك المنحدّين لم يكونا من أولئك المخونة المسكرة . . . والآن
 ما الحيلة يا يحيى ؟

فأجابه يحيى : « لاحيلة بعد اليوم . وما الحيلة إلا بيد الله . وإذا قضى أمرا
 فإنما يقول له كن فيكون » (٣ - ٤٧) . « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها
 إلا هو » (٦ - ٥٩) .

- « هذا يا يحيى كلام جميل . من كتاب جليل . أنزل على نبيّ كريم .

ويقال في مجال حكيم لمنال قويم . لا لمال وخيم هديم . . وهلا يحذر بنا أن نحناط لما عساه أن يفاجئنا به القدر من نحن لا يعلم إلا الله مداها ؟ .

- د دع الأمور يا يوسف تجرى بأعنتها . واترك الأسرار تنضج في أجنحتها - متى حلّ طلقها انطلقت . وإذا ما تعجل الطلق تمخضت . وسواء تمخضت الأقدار فولدت فاراً أم أنجبت حملاً . فإلذنب ذنبنا - بل الذنب ذنب الغدار الذي يفشى الأسرار . وأنت لست بغدار . أنت الوحيد الذي أفلت إلى مسالك الأحجار . ومناطق الأخطار . فالرقابة عليها محكمة سديدة . والحراسة فيها كاملة شديدة . وفيها يجب أن تتم المأساة المريرة . وعلى مذبحها يجب أن تقدم تلك الزمرة المكيرة . فتعفى البلاد من شرّ علتها . وتنجو من ضرّ مخنتها . .

- إن أعمال هؤلاء المماليك أصبحت في الواقع لا تطاق . وقد بغوا في كذبهم ونفاقهم وريائهم . وطغوا في استهتارهم واستثثارهم واستهزائهم . . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون (٢ - ١٤) . يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم ، (٤٨ - ١١) . يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون - (٩ - ٨) فالكذب طبيعة لهم . والنميمة فطرتهم . والتذبذب خلقهم . والظلم شيمتهم : . ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقنّ ولنكوننّ من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ، (٩ - ٧٧)

- ولاشد ما نخشاه منهم فسادهم وفتنهم . والفتنة ديدنهم . والفساد دينهم - . والفتنة أشد من القتل ، (٢ - ١٩٢) . ولولا تبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهنّ بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم

معرضون ، (٢٣ - ٧١) . « والله لا يحب المفسدين »
ولقد أنزلوا الشعب إلى أحط دركات الذلة والفقر والعلة . استقلوا
أرزاقه واستحلوا أقواته . اغتصبوا أمواله وودنسوا حلاله . وهم لم يتجسسوا
خسيسة إلا اقترفوها . ولم يتلسسوا خديعة إلا احترفوها . وهم لم يتجسسوا
كرهية إلا ارتكبوها ولم يأنسوا المحرمة إلا استباحوها . وقد بدّلوا نعمة
الله كفرا وأحلوا قومهم دارالبوار ، (١٤ - ٢٨) قتلوا نفوسا بغير نفوس
وأشبعوا الأرض فسادا . فأصبح التخلص منهم رشادا . بل أصبح قتلهم
سدادا . « من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس
أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا . (٥ - ٣٢) فكان من
قتل نفسا بنفس أو لفساد في الأرض فكأنما أحيانا الناس جميعا . « إنما جزاء
الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن
يقتلوا (٥ - ٢٣) .

أولم يصدق فيهم وعيد سيدنا على بعض عماله بمن خذلوه . « عصيت
إمامتك . وأخزيت أمانتك . وجردت الأرض فأخذت ماتحت قدميك .
وأكلت ماتحت يديك . وكأنك لم تكن على يدنة من ربك . وكأنك إنما كنت
تكيد هذه الأمة عن دنياهم . وتنوى غرتهم في فيهم . فلما أمكنتك الشدة
في خيانتهم . أسرعت الكفرة وعاجلت الوثبة . واختطفت ما قدرت عليه من
أموالهم اختطاف الذئب الأزل دامية المعزى الكسيرة . فحملته رحيب
الصدر بحمله . غير متأثم من أخذه . كأنك - لا أباالخيرك - حذرت إلى
أهلك تراثا من أيك وأملك . فسبحان الله . أما تؤمن بالمعاد . أو ما تخاف
نقاش الحساب . كيف تسبيغ شرابا وطعاما وأنت تعلم أنك تأكل حراما
وتشرب حراما . وتبتاع الأماء من مال البتamy والمساكين والمؤمنين الذين

أفاه الله عليهم هذه الأموال . وأحرز بهم هذه البلاد ؟ فأتق الله واردد إلى هؤلاء القوم أموالهم . فإنك إن لم تفعل ثم أمكنني الله منك لأعذرن إلى الله فيك . ولا ضربتك بسيفي الذي ما ضربت به أحدا إلا دخل النار .

سكت الحكيم قليلا ثم استأنف الكلام . قال : أقرأ على العزيز تاريخ الدول الأوربية الحديث فتشور فيه الفيرة . ويتسائل مكتئبا - لم لا ترقى مصر في ميدان المدنية حتى تبلغ مراتب تلك الدول ؟ .. ولكن كيف السبيل إلى ذلك وشئون البلاد تندهور إلى أردأ مآل . وأسوء حال . والأمة تتقهقر في الجهل والدلة والخنول والعملة . وهناك فئات جرثومية فتاكة يجب استئصالها اليوم - قبل الغد .

تخلص العزيز من الأتراك والإنجليز وبعض زعائنهم وأقصاهم . فإما أنبهم بفلول الجراكسة والألبانيين المستبدين وبقايا السادة المماليك المفسدين فنفاهم - وإذا ما نفاهم - ماقتى يخشى أذاهم . وإما قسا عليهم فأفناهم - وإذا ما أفناهم - لم يخش بعد أذاهم .

والحق ألا سبيل للأخذ بيد الأمة المصرية إلى مصاف الأمم المملوكة مهما ضربنا على أيدي العابثين ومهما كتمنا أنفاس المفسدين - ماداموا أخلاها معمرين - اللهم إلا إذا كسرت أشداقهم . وضربت أعناقهم . ودكت عروئهم . ودقت رؤوسهم . ولقد سميت لذلك الطريقة . وأحكمت الوسيلة . بحيث لا تتعدى العملية بضع ثوان . ما بالك يا يوسف تجزع من قطع دابر ألف متمرّد في سبيل إنقاذ شعب بأكمله . طالما عملوا على قطع دابره .

ثم هناك فتنة الوهابيين وقد عبثوا بالأراضي المقدسة وعاثوا فيها فسادا . حتى أصبح خصيبتها صعيدا جزا لا يثبت إلا حظلا وقتادا . وخرّبت أضرحة الأولياء حتى كادت تصبح للذئاب والأفاعي مرادا . وقد بلغ بهم البأس أن

أزعجوا السلطان وأعجزوا جيوشه الضعيفة . وأصبحوا يهددون الشام وربما هددونا .

• يجب على العزيز أن يكرس جهوده لتنظيم حملة برية بحرية مجهزة بأصلح الأسلحة مزودة بأجود الذخائر . قوامها عشرة ألف مقاتل من الطراز الأول يدرّبهم على قواعد الحرب الحديثة . يعلمهم النظام . ويثّث فيهم روح الشجاعة والتضحية والإقدام . يجب عليه أن يفرغ لتدبير وسائل نقل قواته ومددها وعُددها بحرا وبراً بما يستدعي إنشاء دور صناعة الأسلحة والسفن . وإصلاح المرافئ وتحسينها وتوسيعها .

• فإذا قاد العزيز جيوشه إلى البلاد العربية - ويجب أن يقودها بنفسه - لن يتيسر له أن يترك وراءه قوة كفيلة بالمحافظة على مركزه مع ما علم سراً من استعداد المماليك وبعض الخونة من الأتراك والجرأكسة والألبانيين . للقبض عليه والقضاء على سلطانه وعلى أنظمتهم ومشروعات إصلاحاته . فهو إن ذهب إلى الفتنة الوهابية بقوته تلك تألب عليه أعداؤه - ولا بد أن يتألبوا . وقد أصبحوا خنجراً يسيل دما في ظهره . وإذا ما نفذ الخنجر من الظهر إلى الصدر . خضعت البلاد لسلطونهم . وأصبحت ميدانا رحيبا لجورهم وفجورهم . ورجعت الأمة إلى سابق عهدها بهم من إذلالها وإجاعتها وانتهاك حرمانها

• سيخوض العزيز غمار حرب ضروس . في شاسع الفيافي ونائي القفار . فوجب عليه أن ينظم أموره الداخلية . ويسوى أحوالها . كي يضمن لمصر سلمها ورخاءها وأمنها . ثم يفرع آمنا مطمئنا لشئون الخارجية التي ولا شك سينفتح أمامه مجالها . من جراء تلك الحملة وعواقبها . ولما هو محتمل في المستقبل القريب أو البعيد من احتكاك دولي عصيب . وارتباك سياسي مرعب .

فإن لم يحتط لنفسه اليوم ويضرب الضربة الحاسمة التي ضربها السرطان لعنق العليجوم . لنال منه عدوه في الخارج ما يناله منه عدوه في الداخل . فيصاب بهزيمتين أخراهما شرٌّ من الأولى .

وأما عواقب عملية الغد فلا تخشاها . فقد دبر العزيز لها أمراً . وأخذ عنها حيلتها . نضرع إلى الله تعالى أن تختم المأساة على أحسن حال وأضمن مآل . لا يفشى لها سرٌّ ، ولا يغشاهَا ضرٌّ . ولا يعقبها شرٌّ .

ختم الحكيم مقاله ، وما زال يوسف شاردًا ، فيأدره عانياً . والآن . .
في أي بحر لجيٍّ من التفكير العميق والتدبير السقيم أراك غرقاً ؟

فأجابه يوسف : طمئنني يا يحيى . وقد أرحمت الكثير من وساوسى . وأرحمت الكثير من هواجسى . وكأنى أتعزى في قول الشاعر العربى :
« دع الأيام تفعل ما تشاء وطب نفساً إذا نزل البلاء
ولا تجزع لحادثة الليالى فما لحوادث الدنيا بقاء »

ومع هذا وذاك ، فإنى فى الواقع فَرِقَ ، وفى التفكير العميق غَرِقَ ،
وقلبى من الأذى ينفطر ولا ينجبر ، ودمعى من الأسى ينفجر ولا ينحدر . .
واعلمك تذكر يا يحيى لم أفضل الآن ارتياد القفار الغبراء والصخور الصلدا .
وعلى الرياض الغناء والجنات الفيحاء .

فبأدره الحكيم : « لقد أذكرتني يا يوسف أمراً خطيراً نسيتهُ . والآن وعيته . يجب أن أدبر له حلاً حاسماً . ونخرجاً باسمًا . قبل ضياع الفرص . ووقوع الغصص . لا تخف واطمئن . وإن غداً لناظره قريب . ثم على هذه الوسائد الوفيرة كما أنام - نوما هادئاً مريحاً . بعد أن عدت من الصحارى بريحاً جريحاً ، أسعد الله ليلتك . وأسبغ عليك نومتك . »

فتاة مصر

حل سعيد :

استيقظ يوسف على أذان الفجر ولم يجد أخاه فارتعب . وهرع يبحث عنه من حجرة لأخرى . حتى عثر على كتاب منه . يوصيه بالخروج ويطمئنه فيه .

إطمأن يوسف فزين وتعطر . واكتسى فاخر ثيابه . ولف على رأسه ثمين عمامته . وبعد أن تناول إفطاره جلس على تخت وثير . وقد أتاه الخادم بمنضدة وضع عليها قدح القهوة قرين مصحفه . وأتاه بأرجلته الذهبية برتشف منها أنفاسه ارتشافه لقهوته . وهو يقاب صفحات كتابه . وكان في الواقع يقلب أوجه التفكير . وكأن في قلبه جرة الكبر . وقد ثارت مخاوفه على أخيه . ومن أخيه انتقلت إلى زليخة مربية أبيه .

أما الحكيم فقد قام وما زال يوسف غارقا في نومه إثر ما تحمل من مجهود جسدي على سفح الجبل الحجري . وما بذل من مجهود نفسي على بساط الحديث الأخوي . أنار الحكيم مصباحه وحمله وخرج متسللا . وفي ظلمة الليل متسترا . وأيقظ سائسه الذي أحضر له فرسه وجناح الريح . فامتطاء وهرول إلى القلعة . وكان البرد قارسا . والهواء زمهريرا . وقد أصبغ رذاذ الندى يديه . ولفح وجهه وأدمع عينيه . وما زالت ظلمة الليل معلقة في الفضاء . مخيمة على الأحياء . ولم يكدر يستكشف الطريق لتراكم السحاب . لولا أن استشعر وجناح الريح ، سيده في كثيف الضباب . وإذا ما بلغ الحكيم ، رتاج الحصن المنيع . سلم الحارس قياد فرسه . وذهب إلى مرابض

جنده . فأقصى الوهن السقيم . وأبقى النشاط السليم . وأصبح المرابضون من خيرة الرجال الأشداء . أن يخطئوا المرمى - ولا يتعدى عملهم حركة آلية محكمة . لا تستلزم مبارزة ولا تستدعى مقاومة . بل تستوجب ثباتاً وقوة وإقداماً .

ثم انطلق يحيى على متن فرسه إلى قصر المملوك سليم فترجل . وأسرع الخطا في الردهة مضطرباً . وكان الهواء شديداً قارساً . فاغرورقت عيناه وأجمرت وجنتاه وامتصت شفثاه وصقعت يدها .

سمع سليم صوته ووقع حذائيه . فهرع إليه واحتضنه واستفسره الخطب . فأجابه يحيى وكأنه يغصّ في دموعه . « أمى مريضة وحالتها خطيرة . وقد أجهدت نفسى فى علاجها طيلة ليلها . وعملى اليوم لا يسمح لى بملازمتها . ولا أجد من أطمئن إليه . وأثق فيه . يعتنى بها ويناولها أدويتها فى مواعيدها . وأغذيتها فى حدودها . فقصدتك - أنت الصديق الوفى الكريم . كى تسمح لزيلخة بأن توليها عنايتها بما عهد فيها من عطف الابنة الحانية على أمها . خجل سليم . وهرول ينادى زليخة . ومالبث أن أنى بها متزرة بأبهج حللها . متزينة بأبهى حللها . وقال . « هاهى امرأتى - أى طبيبى العزيز - تحت أمرتك . وفى حمى حرمتك . »

قاد الحكيم زليخة إلى قاعة الاستقبال . ونسكص على عقبه إلى غرفة أمه . وهى مازالت راقدة فى فراشها . أقبل عليها وقبّل يديها وجلس إليها . وقال . « اسمعى يا أمى . » وتمدج صوته . واختنق . فسكت .

- « ماخطبك يا ولدى ؟ » -

- « لاشئ . غير أنى ذهبت إلى القلعة مبكراً - على متن « جناح الريح »

وكان البرد شديداً . والهواء جليداً .

— هذا شأنك منذ نعومة أظفارك . في جميع أطوارك - تضحي بحياتك في خدمة أمرك . وفي حسن القيام بواجبك . حفظك الله . وأبعد عنك شر الأيام العصية . وضرر الأقدار المريبة .

— نعم يا أماء ، الأيام عصبية . والأقدار مريبة . والآخرة قريبة . لا آخرتنا نحن بالذات . ولكن آخرة شر ذمة غدارة ، وزمرة جبارة . نواياها معيبة ، وطواياها مريبة ، شاء ربها أن تقترب من إحنتها ، وتشرب منيتها في محنتها . . . تعلمن أن الأمير سيقلد اليوم ولده قيادة الجيش في عيد مهيب ، وحفل زهيب ، ثم يخرج المدعوون - على نغمات الموسيقى ونفخات الأبواق وطلقات المدافع ونقرات الطبول ، هيئة بعد هيئة ، وطائفة إثر طائفة ، وإذا ما توسطت زمرة المهابيك الطريق الحجري والممر الصخري . أو صدت عليهم السبل ، وحوصروا بين الأسوار ، وأنهم يراهم كما أنماهم شياطينهم - من بين أيديهم ، ومن بين أرجلهم ، ومن خلفهم ومن أمامهم . وعن ثمالهم وعن أيمانهم . وكأنهم أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود ، (٨٥ - ٦) . وسبق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها ، (٣٩ - ٧١) . قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ، (٣٩ - ٧٢) . إذا اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه ، (١٨ = ٢٩) لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ، (٣٩ = ١٦) أصحاب النار خالدين فيها . وبئس مصير الفاسقين .

— يا للهول يا ولهي .

— لا تجزعي يا أماء من اجراء لازم حكيم حازم . لا معدى من تنفيذه اليوم - بحيلة وتكنم وإحكام . لقطع دابر أولئك المكرة الخوثة الطغاة .

وإنقاذ البلاد من شرهم وقد عجزنا عن ردعهم بهز مهم أو إقصائهم . ولم يصيرنا
أمرهم ؟ ولم يثيرنا مصيرهم ؟ . .

— إذن . . فما وجه اضطرابك ؟ . .

— اضطرابي ! لا لمصيرهم ، بل لمصير شخص عزيز واحد . زوج فيهم
وهو ليس منهم ، وأخشى أن يضيع برىء في جريرتهم ! . .

— زليخة ! ابنتي ! ويح قلبي . ما مصيرها ! . .

— لا أدري ! ولكنني أحضرتها بالحيلة على أن تتولى العناية بك ،
فتصني المرض . وسأوافيك بها ، أما مصيرها ، فييد الله . وقام وانصرف .

بين الشك واليقين :

دخلت زليخة الحسنة غرفة الاستقبال . فمبّ يوسف وتقدم إليها :
« زليخة . . أنت هنا ؟ ما أهنا يومنا . . »

خجلت زليخة وتلعثم لسانها . « يوسف كيف حالك ؟ لم أركم من زمن
بعيد لأسباب لا أخالككم تجهلونها ، كم كنت أود أن أحضر في مناسبة أسعد
من هذه ، أبلغني يحيى أن الوالدة مريضة . فهرعت كي أعتنى بها ، وسأقضي
النهار معها حتى يأتيني سليم بعد . الحفلة ، فأصرف معه . هذه إرادته . . »

اجتاحت وجدان يوسف وهو يستمع إلى حديث زليخة انفعالات
نفسية لم يتما لكها . فصرخ : « تنصرفين معه . هذه إرادته ! ، وامتنع لونه .
ظننت زليخة انفعاله عامل غيرة فبادرته . « ما بك يا يوسف ؟ » .

— « لا شيء . غير أنني سهرت الليل طوله أعتنى بأمي فهبطت قواي . »

— « بارك الله فيك ولد أباراً . تشجع ولا تخف ، وقد جئت للعناية بها .
فاتهن الفرصة الآن واسترح قليلاً حتى تسترد قواك . . . » وكان « الحكيم »
قد ناداها ، فخرجت . . .

أقبلت زليخة على الوالدة إقبال الإبنة البارة الحانية . وأخذتها بين ذراعيها وقبلتها وقالت « كيف أنت يا أمى المحبوبة . لا تنزعى . وما أنذا حضرت لا كون قريبة منك . ستشفين يا ذن الله وبفضل علاج طبيبنا العزيز وما سأبذل من جهد للعناية بك » .

« أهلا وسهلا بابنتى . أحمد الله أن ساقك الينا فى أخرج الساعات وأنسب الأوقات . أنت ابنتى - مربوبة زوجى - أحاطك بعنايته طفلة . وضمك إلى ولديه تحت رعايتى . ثم انتزعتك الأقدار منا . ثم أعادتك الينا . وإنا لنقطع لك عهدا حقا أنك منا - ما أبعدتك الظروف عنا - تسعدين فى كنفنا وحرمانا - ما حيت وما حيننا . »

تسارعت نبضات زليخة وأحمرت وجنتاها من ترحيب فطرى جميل . والكنها لم تفهم الكثير مما سمعت وسمارت . فأطرقت مؤمنة ممتنة وتحيرت . تحيرت من لجة عاطفية تقطع عربون أسومة وأخوة ورعاية وحماية . إلى مستقبل بعيد وعمر مديد . مع أنها فى حمى رجل عظيم ثرى قادر قوى . يقول إنه زوجها . وهى ان تستكشف الحقيقة بالحدس والظن والتخمين . وهى لن تستشعر شيئا . وهى ان تستكشف شيئا . حتى يأتيها مساؤها . وحتى يأتيها بعلمها . وسيايتها مساؤها . وان يأتيها بعلمها - لافى مساها . ولا فى غدها . ولا طيلة حياتها .

أبدت الوالدة حاجتها للنوم كى تتخلص مما قد يخرجها لو طال مع زليخة حديثها . فناولتها زليخة الدواء والغذاء . ثم غطتها بعناية ورفق . وقبلتها وخرجت .

ثم هرعت إلى يرسف وإذا به يقلب صفحات المصحف الشريف .

فأقبلت عليه وجلست اليه وقالت : « كيف حالك الآن . لعلك استرحت قليلا .
واسترددت هدوءك وقواك ، أليس ذاهبا إلى عملك أو إلى حفلة اليوم ؟ »
فأجابها يوسف . « لا إلى الحفلة ولا إلى العمل ، ولست بحمد الله من المددعوين
لهذا العيد المجيد ، مهد العهد الجديد ، وسيأتينا يحيى في المساء بأخباره . »
فقالت زليخة : « وسيأتينا سليم بوصف شامل للعيد الذي كان ينتظره
بفارغ الصبر وقد جهز له من الثياب الرسمية الجميلة والأوسمة والحلى الثمينة
ما يظهر به جاهه ووجاهته ، ويتقدم الحفل بالعظمة اللائقة بطاقته ،
أطرق يوسف وأوقع سياسته على آية تتبعها في كتابه ، رنت إليها زليخة
وقرأت . « وانبوتكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال
والأنفس والثمار وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا
إنا لله وإنا اليه راجعون » (٢ - ١٥٦) ثم سألت . « وما غرضك
من هذا ؟ »

- « الغرض أن الإنسان معرض في حياته القصيرة لكثير من الرزايا
والحن يجب أن يقابلها بثبات ، ويقبلها برباطة جأش ، ويتحملها بتصبر
وتحمل وجلد ، وما مرحلة أعمارنا - طالت أم قصرت - إلا سخرة مضيئة ،
راحة الموت ختامها ، فإذا خوفنا حدث ، كأن أجذبت الأرض ، فشحت
مواردها وتلفت ثمارها أو كأن أصابنا حزن أو مرض أو فقر أو جوع أو موت
أو كأن منينا بشر مريب أو بضر عصيب وجب أن نتحمل وتتصبر ، ونتحمل
ونتدبر ، وجب أن نؤمن بالله واليه مرجعنا ، وبين يديه جزاؤنا وفق أعمالنا .
ولربما يكون ضرنا القريب لخيرنا البعيد ، فإذا كان هناك ضرر قريب -
فسيتمعه خير قريب ، وأنا بذلك كفيل ، والله على رقيب .
- « وسليم ما كفالته ؟ » .

« كفالة سليم باطاله ، إغتصبها من خالقك سبحانه وحارسك ، انتزعها من أبي مربوبك ومن جدى ولى نعمك ومن أمى مرييتك منذ طفولتك ، انتزعها منى أناشريكك فى ضرع أمى - وما زالت ألبانها تنبض فى دمك ما نبضت فى دى ، وتخفق فى قلبك ما خفقت فى قلبى .

إنتهز يوسف أنسب الفرص يمد فيها للمستقبل الغامض العصيب ، والمصير المريب ، ورأى أن يثابر فى الضرب على الوتر الحساس إلى أن يشعر هذه المرأة التعمسة بؤسها .

فاستأنف حديثه قال : « أنت الآن قريبة منى جسما ، ولكنك بعيدة عنى روحا ... »

« بالأمس كنت فتاة طاهرة غضة زاهية ، واليوم أنت أمة ذابلة ذليلة عبدة لسيّد أنانى ، مستبدّ شهوانى ، اشتراك فى السوق جارية مبتذلة ، استهواك بماله ، واستغواك بجماله ، ولولا أن عرفك أخيراً رضيعتى لما ميزك عن أماته وجارياته ،

أركنت زليخة رأسها على كتفه وأمسكت بيده وقالت بصوت خافت كأنها تهمس فى أذنه سرّاً . « نعم أنا بانسة مادمت عن حماكم الواقى ومجالكم الراقى مصدودة ، وعن بيتكم الطيبة وحرمتكم الحانية مردودة ، ونهيبى من الحياة كما ترانى ،

« نهيب سىء ، ومهvir سىء ، والآن ألا يجب أن نعالج الحاضر وننساها فى فكريات الماضى وحماه . ألا يجب أن نثير الماضى البعيد فى المستقبل القريب نحياه ونحياه ، ألم تأزف ساعة الفصل ؟ »

« أى فصل تعنى يا يوسف ؟ »

« أعنى الفصل بين العزة والهوان ، والجهود والإيمان ، والخوف

والأمان - الفصل بين الإصلاح والفساد ، والاسعاد والاستبعاد ، والعدل الاستبعاد . الفصل بين الوفاء والعداء ، والرخاء والعناء ، والهناء والعناء .

وما أن أتم كلامه حتى قرعت الطبول على وقع سنابك الخيول ، فوجم كالنخبول ، إذ كان الوقع نذير الحدث الم هول .
- « لم تضطرب يا يوسف ؟ »

- « أضطرب لأن يدك في يدي ، وأنت أختي ، سويا تريننا وسويا تغذينا .
وقد تسرب الحب من ضرعي أمي إلى قلبينا ، تتجسس الألبان دماً في نبضينا .
ما تحسس الدم في جسدنا وترقرق في يدنا ،
- وما شأن ضربات قلب سليم زوجي ؟ »

- « سليم زوجك ! إختطفك فريسة ضعيفة كما اختطف مئات السبايا أمثالك ، إستباحهن ولا عقد هناك يستحلّ الاختطاف والاستباحة والاستسفاف ! ما أنت بزوجة حقا ، ولكنك أمة جارية سبيّ موصومة معدومة . . أما شأن ضربات قلبه فشأن ضربات قلبي ، قد تنقطع ما بين عشية وضحاها ، وإن لم يعتقك إنسان فسوف يعتقك الحدثان ، وإن لم يحرك الأنصار فسوف تحرك الأقدار »

وما كادت تنطلق من فم الكلمات حتى انطلقت من المدافع قصفات متواليات ، ثم دوت عدة طلقات - مائة أو ألف - في طلقة واحدة .
انتفضت زليخة وانقبضت ، وارتمت بين ذراعي يوسف وصرخت :
« ماذا جرى ؟ » .

- « لا شيء ، هذه ضربات قلبي انطلقت بانطلاق قلب سيدك ، فأوقعتك بين ذراعيّ - في حماي - لا في حماه ، الطلقات في أركان الأرض دوت ،

وزليخة في أحضان الأخ هوت ، وضحك ، فانبسطت أساريرها ولم تفهم
وضحكك ، ثم أخذته من يده وهرولا إلى غرفة الوالدة واستأذناها - فأذنت ،
وكانت مضطربة ، وإذ رأتهما هدأت واطمأن قلبها لولا أن نقصها ثالتها ،
وبادرتها زليخة تسألها : « لا شك يا أماء أن المدافع قد أزعجتك ، ولكن
اطمئني ، فالطلقات الأوليات نحيات ، والطلقات التالية الموحدة مؤذات
بتولى « طوسن » القيادات . . . وهلا تظن يا يوسف أن طوسن سينتقى
اليوم قواد جيشه ؟ » .

- « ربما يكون ذلك ، .

- « وهلا تظن أن يؤخذ سليم في إحدى القيادات ؟ » .

- « ربما يكون ذلك ، ولقد يسرك أن يكون له فيها نصيب ، يرحل

إلى البلاد النائية فتستريحين ، ولو إلى حين ، .

- « لا يا أخى ، وإنما أحظى بفرص سعيدة أحيي فيها معكم بعض

أيام صباى ، .

- « حبذا لو تحققت أمنيتك أمنيئنا ، فتسعين ونسعد بإقامتك معنا ، .

- « لا . . وإنما سأتردد عليكم من وقت لآخر ، فقد لا يسمح سليم

بأن أهجّر سرايه إلى أن يعود ، وسيكون رجاله وحريمه رصداً على - يومى

بعد يومى ، وشهرى بعد شهرى ، .

ثم أطرفت وقد ثارت شجونها ، إذ استدركت شئونها ، في مجالها العاتل

الأمين قالت :

« غفر الله لأبى وأمى ، قد فانى على الأرض وتركاني رضيعة ، فانتشلتني

أبوك من اليتيم - فقيرة - ، ووضعني في أحضان أمك نرشف سويا - أنت

وأنا - أيتها ، فافاضت علينا حنانها ، رباني أبوك وأحسن مشواى ، ثم مات ،

فأتمّ جدك ما شرع فيه أبوك ، علني أصول الدين ، فأحسن تعليمي ، ودرّسني
 اللسان العربيّ القويم ، وحفظني القرآن الكريم ، وأفهمني تفسير آياته ،
 ومقاصد نزولها ، فعملت بها في صومى وصلاتي ، ونسكى وزكّائى ، وفى سائر
 أعمالى ونياتى ، فضمنت طهر سيرتى وبرء سريرتى ، وإذ أنا أرتع فى الرياض
 الغناء . وكلّى أمل فى حياة مليئة بالعزة والهناء - يحفظنى من بيعنى فى
 الأسواق بيع السلع . وأضيق عنكم كى أقع فى وكر هذا المملوك المفترون .
 « رحم الله الشيخ الصديق ، هذبى وأدبى ، فأحسن تأديبى ، وما زالت
 تعاليمه مطبوعة فى قلبى ، ولكن ضاع منى مجال تنفيذها وإفية ، والعمل بها
 كاملاً ، ولقد عرّفتى مركز المرأة المسلمة من إسلامها ، ما لها من حقوق ،
 وما عليها من واجبات ، وفق سنن الدين وآيات الذكر الحكيم : « وقلنا
 يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ، (٢ - ٢٥)
 فترك سبحانه لها ما ترك للزوج من حرية التمتع بالحياة وزينتها وبالآكل منها رغداً
 حيثما شاء وكيفما شاء ، وقد خلقهما جسداً واحداً وروحاً واحداً :
 « أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ، (٢٦ - ٧) والذين
 يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرّة أعين واجعلنا للمتقين
 إماما ، (٢٥ - ٧٤) فوهبه الله إياها ، ووهبه منها بنيه بنها قرّة عين ، وأوصاه
 بالذهاب معها إلى أقصى حدود الرأفة وإصلاح ذات البين : « وإن خطم
 شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق
 الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً ، (٤ - ٢٥) « وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله
 كان غفوراً رحيماً ، (٤ - ١٢٩) وقد ساوى تعالى بينهما فى التماثل والصفاء ،
 والوافق الوفاء ، وفى حاجة كل منهما للآخر : « هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ
 علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم ، (٢ - ١٨٧) وقد

أصبحت نفساً واحدة يتناحيان ويتعاونان ، ويتآزران في العيش ، ويتلاسان في الحياة كل منهما للآخر قرة عين ، وقد جعل الذكر من أنثاه زوجاً كريماً يسكن إليها ويسكن إليه ، ويعطف عليها وتعطف عليه : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » (٢٠-٢١) ولم يرفعه سبحانه ولم يجعله عليها قواماً كي يستأثر دونها بالنور والعلم والهدى ورغد العيش والسيطرة على الأرض والتمتع بخيراتها ، ولم يجعلها ذكراً وأنثى إلا لكي يتحابا ويتناسلا رجالاً ونساءً : « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون » (١٦-١٧) وقد جعل لكل من الزوجين سبيله ، وكانت فروضهما واحدة ، ومتعتهما واحدة ، وجزاؤهما واحداً : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم » (٥٧-١٢) .

سأرى سبحانه الأناث بالذكر في جميع الفروض ، وقد سن الدين ما لها من حقوق ، وما عليها من واجبات ، وهي لن يتسنى لها القيام بفرضي الفروض والواجبات إلا إذا قرأت الكتاب صحيحاً ، وفهمته صحيحاً ، وطبقته على الحياة العملية صحيحاً ، بلا تأويل وبلا تضليل ، وهي لن يتسنى لها ذلك إلا إذا ثقفت ثقيفاً راقياً ، وتوطد خلقها ، وتكونت فيها نفسية بارزة راجحة ، وتفتق ذهنها لشتى العلوم ، فتعرفت في تعمق واسهاب بكل ما إليه الكتاب في إجمال وإيجاز ، مما يتداخل في جميع تلك العلوم ، وهي لن يتسنى لها ذلك إلا إذا شحذ فكرها ، واستنار عقلها ، وتهذبت حساسيتها ، فوعبت جمال الطبيعة التي أبدع الخالق صنعها وصيغها ، وقد رقق الشعر شعورها ، ورقق

وجدانها ، ونظم مقالها ، وقد قوّم النثر كلها ، وهذب قلبها ، وملا الأدب جوانحها ، وأحيا الدين جوارحها .

« أعطاه الله قلبا خفقا يهذه الأدب . وبفوّمه الدين . ويلينه الحب ، تشارك بعلمها بلمواه ، وتكون داليل هداها ، تخفف عنه من الغمّ ما دهاها ، وتزيل عنه من المرض ما أبلاه . ومن الداء ما أعياه . وإذا رزئت فيه بكنهه ورددت رثاء صافية الباهلية في بعلمها : -

« كنا كغصنين في جرثومة بسقا حيناً على خير ما تنمى به الشجر
حتى إذا قيل قد طالت فروعهما وطاب قنواهما واستمطر الثمر
أخنى على واحد ريب الزمان وما يبقى الزمان على شيء ولا يذر
كنا كأنجم ليل بينها قمر يحلو الدجى فهو من بينها القمر »
« عرفت كل ذلك وأكثر من ذلك ، ولكنني فقدت مجال العمل به ،
فعمى الحزن ، وأضنانى الأسى ، وقد تذوقت الحرية البريئة ولذاتها في حمى
الدين ويارشاد الكتاب المبين ، وبيننا أنا أمرح في الظل الوريث وأهازيج
الحفيف . مؤملة التمتع بما منّ على الدين الحنيف من حقوق تمتنى بما فرض
على من واجبات . إذا بالشباك تقتنصني . ويكون مصيرى المحتوم أمة لمملوك
عنى . يسمنى شرّ الشقاء وضرّ البلاء . وقد حرّم على مبارحة الدار . وكشف
النقاب وإزاحة الستار . وما زلت في نعومة الأظفار وليونة الأعمار . فلم
أجد بداً من أن أقيس غرفتي ليلى ونهارى . في جيتى وذهابى . هلنى أفرج
عن كربى في وحدتى . وفي فرقتى عن قومى وأحبى . وأهل وأسرتى . وفي
ابتعادى عن بيتى . وحرمانى حريتى - وحرقتى هى حياتى ، وحياتى هى حريتى ،
« أنتقل من غرفة إلى غرفة لعل أعزسى نفسى بما أرى من أثاث وثرىات
وصور . ولكنى أرى فى الأثاث والثرىات والصور أجلى برهان على ذلى .

ثم أذكر كم فأراني حيرى . تتجاذبنى فترات من الأمل والفرح . وفترات من
اليأس والترح . وأجد نفسى حيرى بين التحمل والتضجر . وأجد أنفاسى
حيرى بين التغلغل والتفجر . وأجد دموعى حيرى بين الجمود والانجاس
والترقق والاحتباس . وأجد قلبى حائراً بين التجميل والقلق . ومضجى
حائراً بين النوم والأرق . ولسان حالى يقول :

« الحزن يقلق والتجميل يردع والدمع بينهما عصي طيع
يتنازعان دموع عين مستهد هذا يحى بها وهذا يرجع ،
أسير فى عزلى بين الجدران خائفة وجلّة . خافية تؤجج عاتى . سارة تفجع عاتى .
تفجمات قاسية . وتوجعات عاصية . لن تزول ما زالت ذكريات أحبتى معلقة فى
مخيلتى . وأشعر بأشباح أمى وأبى . وأيك وجدك وأخى . فهو حولى
كانها تلامس . وفيما بينها اتهامس . ثم أتلفت يمنة ويسرة . فلا أرى أشباحاً
ولا أجد أرواحاً . ولا أشعر تلامساً ولا أسمع اتهامساً . فيقشعر جسدى
من هول ما لا أجد . كما يقشعر من هول ما يجد . ويحمد الدم فى عروقى
من وحشة الفراغ الذى يحيط بى فى عزلى . كما يحمد من مؤانسة الأشباح لى
فى وحدتى . »

« وبيننا أنا هائمة فى نكبتى ، جاثمة فى كربى ، وقد هجرنى الأمير طيلة
نهارى وحتى الهزيع الأخير من ليلتى ، إذا به يفاجئنى وقد أفقده الخمر
رشده ، وأفرغ الميسر جيبه ، ينهرنى ويهددنى ، وهو إذا صليت سخر منى ،
وإذا كتبت رسالة مزقها ورماها إرباقى وجهى ، وقد أغلق على الأبواب
والمنافذ ، وقفلنى سجيناً فى ذاتى ، فخرمنى من حق التمتع بجمال الطبيعة التى
عشقته فى طفولتى وفتوتى ، وطالما مرحت فى بحبوحتها وظلال دوحاتها ،
على جوانب جبالها وضياف قنواتها خلال زهور وديانها وثمار بسايتها ،

« وهو لن تزفيه سوى أحاديث الخيول المطهمة والمعاطف المطرزة والسر اويل المزركشة والأسلحة المرقشة ، ولن تزفيه سوى الحلّى الثمينة والأحجار الكريمة ، ولن تشجيه سوى أقوال الفحش والخنا وسير الوجبات الفاخرة اللذيذة وأحاديث السرية السمرية العريضة ، ولن يغريه سوى الملحق والتذبذب والزاف ، ولن تطريه سوى المؤامرات الخطيرة والفتن المضيرة والمكائد المثيرة .

« ولا يخفك ما يبيته هو وأسرأؤه من أهوال سينفذونها يوم يرحل الجيش برجاله وعتاده وقواده إلى البلاد العربية ، وتزحف قواتهم من أدانى البلاد وأقصاها ، ومن جوانب العاصمة ونواصيها ، وتتألب على مواطننا العزيز ، للقضاء عليه ، واسترداد سلطانهم بعد قلب سلطانه ، وقد رسموا مشاريعهم ، وتقطعوا فيما بينهم أقاليمهم - لكل منهم اقليمه ، يحكمه وفق ارادته وأغراضه ، وقد شرعوا يفكرون فى التودد للانجليز لتأييدهم وشدهم إزهم ، بعد أن خذلوهم لأول مرة - إذ خشوا أن يأخذهم العزيز على غرة . فى كرة وفرّة - الجيش يظاھرہ والشعب يناصره ، أطلب إلى المولى تعالى أن يؤوبوا من فتنهم بالخذلان والخسران ، فهم لو نجحوا - فويل للأمة المصرية - أمتى - من كيدهم وغيظهم ، وطغيانهم وظلمهم ، وطمعهم وجشعهم ، واستبدادهم واستعبادهم ، وجورهم ولجورهم . »

« والآن لاحيلة لى فى غير الصبر والرجاء . حتى يأتينى الفرج والعزاء ، فأجابه يوسف مطرقا . « الفرج باذن الله قريب . وهو سبحانه علينا رقيب ولدعواتنا الصالحات مجيب . « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور . »
« أولئك يؤتون أجرهم بما صبروا ،

عاد الحكيم إلى بيته فوجد أمه جالسة جلستها العائلية بين زليخة وبوسف.
قال : أسعد الله مساءكم . ها أنذا أنيتكم لأستريح معكم بعد أن يطمئن قلبي
إلى أمي ، . وأمسك يديها وقال . نحمد الله أن هيا الأمور على مايرام .
فأشنى أمي من السقام . وأنجى أمي من الطعام . نفذ العزيز برامج البلاد
فنجحت . ونفذ برامج زليخة فنجت ، ثم مدَّ يديه إليها وأطبق بهما على
يديها بترفق وقال . إسمي يا فتاة مصر ! لقد عامل العزيز ، سليما وزمرته
بما أعتقك منه ومنهم ، وأقصاك عنه وعنهم ، وقد ضمن لك مالك ، على أنك
أصبحت من اليوم ولا شأن لك بمن يسمى سليما أو يكنى ملوكا ، بعد أن
تحررت . وانفصمت بينكما العرى إلى أبد الآبدين . فلا تخافيه . ولا تفكرتي
فيه . واطمئني لمستقبل سعيد حرة طليقة في حى مليكننا . بعد أن أنقذك من
جلادك . وقد أطل عليك إلى الأبد غيبته . فدفع عنك إلى الأبد كبرياءه
وغروره ووشايته . وميسره وسكره ودعارته وإفكه وكذبه وغوايته .
وحواريه وجواريه ونسوته . ورفع عنك فظاظته وقسوته وغلظته . وفحشه
ورجسه وضلته . ومنسه وفسقه ونميمته . وظلمه وتهتكه وخيائته ،
ثم خيم على الغرفة سكوت رهيب . وكأن القلوب الأربعة تتجاوب
ضرباتها . وكأن دماءها تتناوب نبضاتها . وقد أطرق زليخة متحيرة . وهي
لم تفهم الكثير مما سمعت . وهي لم تقو على استفسار الكثير مما جهلت
أو تربت . وقد ضاق مجال حدسها وتخمينها . وجفت ووجلّت . ولكنها
أمنت واطمأنت . ثم تجرأت وتشجعت . وقد أعتقت وتحررت . وهي لا تعلم
كيف أعتقت وكيف تحررت . وأخذت بيد الحكيم وقالت :
« أشكرك يا يحيى ،

حقق أمنيتها وأنقذ قوميتها

قصة جميلة ابتدعها الخيال . قدّرتها المثل الأعلى للفتاة الممذبة الكاملة .
والمرأة الراقية والزوجة الوفية البائسة .

ثم ثار وجداني مذعلت أن القصة إن هي إلا صورة مجيدة لمصر الفتية .
أعتقها « العزيز » من شر طغاتها . وخلصها من ضرر بغاتها . وقد حطم
أصفادها . وأطلقها ناجية من أغلالها . لتتم في بجموحة حرّيتها .



صرح محمد يقيمه والفاروق يدعمه

* * *

وطد العزيز سلطانه بعد أن أقصى العناصر الأجنبية الهدامة . وأدمج
الطيبة منها في الأمة . فأصبحت مصر للمصريين - لاسيادة عليها لأجنبي -
فرنسي كان أم انجليزى . تركى كان أم شركسى .

استحضر من قومه المخلصين من يعتمد إليهم في تأييده وشدّ إزره . وهو
لم يميز بين مسلم وناصرى . شرقى وغربى . استقدمهم بحض إرادته واختياره .
وكان سديداً في إرادته . موفقاً في اختياره . إذ انتقام من الأسر الطيبة التي
أولته عطفها وحبها . وعاهدته وفاءها وإخلاصها . استخلصهم عن عرف
فيهم الاستقامة والأمانة وإنكار الذات وكبح جماح الشهوات . وتحمل
مشاق الحياة - حياة العمل والسكد والنشاط - في سبيل خير العباد ورخاء

البلاد. وقد وجد خير عون لتنفيذ برامجي في أبنائه إبراهيم وطوسن واسماعيل.
وفي بعض قوى قرباء المخلصين .

وقد أدمع هؤلاء بجهاذ الأجانب الذين استحضروهم للاستعانة بمخبرتهم
السياسية والحربية والعلمية والاقتصادية والفنية والهندسية والطبية والزراعية.
وذلك عدا الذين نشأوا بعبقريتهم ونبوغهم من أبناء مصر النجباء . ممن كدوا
في مضمار العلم والعمل . وقد التف هذا الجمع المختار حول محمد . يؤيده
الأعيان والعلماء وغيرهم من الوطنيين المخلصين . فكانوا جميعاً لأريكنه سياجا
منيعا يدعمه جيش مصري صميم . وأسطول مصري صميم .

تخلص العزيز من غرمانه فرفع سيف مصر وصوتها - في وجه سلطانها -
في سبيل استقلالها . وإعلاء شأنها . ووقف ولده إبراهيم القائد المتيد والبطل
الصنديد بين رجال جيشه غداة عودته من حرب المورة التي زُجَّ فيها متورطاً
لإرضاء سلطانة . قال يهيء النفوس لعهد جديد . في ظل استقلال سديد :
« ماذا استفدنا من الساطان وحاشيته . نحن جميعاً أولاد محمد علي . ربانا
وعلمنا وهذبنا وحمانا . وقد أكلنا من خبزه . ورتعنا في عزه . إكتسب
استقلالنا بمحمد سيفه . ولاملك لنا غير ملكه . »

وما أروع صرخة « العزيز » يوم استشعر مؤامرة الدول على استقلال
بلاذه : « لن أترك للدمار والبوار ما شيدت من منافع ومرافق حيوية
طوال ولايتي . بما كلفني وكلف مواطني المصريين جهوداً جبارة وأموالاً
طائلة . وهامى الدور الصناعية والمعاهد العلمية والطبية والهندسية والزراعية
والفنية على النهج الأوروبي والنظام الراقى أسسناها . وهامى الطرق والترع
والجسور والموانئ خططناها وفتحناها وبنيناها . وهامى مزارع القطن
والقصب ومصانع السكر والصوف والحرير ومناجم الفحم والحديد أنشأناها .

إن قلبي لينفطر أسى إذا ما تخيلات أن ثمار جهودي وجود قومي ضائعة
وسارة إلى الفناء - تلعب بها الأهواء من بعدى كما تشاء .

وما أوقع صرخته الأخرى : « الطفرة مستعصية في رقب الآم ، لقد
قت ببعض الشيء لمصر ، فأصبحت تمتاز على ممالك كثيرة في الشرق والغرب ،
حقاً يعوزنا كثير مما لا نزال نجعله ، ولذا فإني مرسل من شبابنا فريقاً مختاراً
للتزود بالعلوم والصناعات في البلاد الأوروبية الناهضة ، فعليهم أن ينظروا
إلى الأشياء بأنفسهم ، ويعملوا في سائر المهن والحرف بأيديهم ، ويختبروا
الفنون والعلوم بشاقب تفكيرهم . ويبحثوا في أسباب رقب غيرنا من الآم
ويعمنوا النظر في سر تقدمهم ومدنيتهم . فيعودون وهم مزودون بما نفتقر
إليه من علم وعمل يدرجان بنا إلى ذروة الفلاح والرقى والنجاح .

اطمأن العزيز إلى استتباب ملكه فوجب عليه أن يصلح أمور بلاده حتى
يرقى بها إلى مصاف الدول العظيمة ، وهو يعلم يقيناً أنه لن يحقق بغيته
إلا بإنشاء جيش قوى من أبناء مصر الأمناء ورجالها الأشداء . قال كلوت بك
في هذا الصدد : -

« لا ينهياً للرم أن يشاهد الأثر المباشر للحرب في المدنية كما يشاهده
في مصر فقد كان عليها أن تشرع في تنظيم جيشها والنهوض بها إلى المستوى
اللائق بها . وأدرك محمد على فوائد النظام على مقتضى الفنون العسكرية
الحديثة . ورأى أنه لا يتيسر له صيانة مركزه إلا بقوة السلاح . فوجه
تفكيره إلى تأليف جيش نظامي يكفل له الأمن والطمأنينة في الداخل ،
والقوة والنفوذ في الخارج . وقد أنتج هذا الجيش الجديد ثماراً يانعة عادت
على مصر بالفلاح . إذ تعودت على النظام وهي لم تألف سوى الفوضى .
وكانت دائماً فريسة لجيوش من الأتراك والأرمن وديدهم إشعال نار الفتن

وارتكاب المظالم والموبقات. وكان من ثمار الجيش أيضا اجتماع الأفراد تحت لواء الاتحاد مما أدى إلى النهضة والقوة للشعب المصرى . وصيره ذا روح وطنية . وبعث فيه الطموح إلى المعالي والوثوق بالنفس والاعتماد عليها - ذلك الشعور اللازم لكل أمة حية مستقلة . وقد أوجبت الضرورة نشر التعليم بفروعه وإنشاء المعامل ودور الصناعات المختلفة وإرسال البعثات من الشبيبة المصرية إلى البلاد الأوربية لاستقاء العلوم من مناهلها وتلقى الفنون والمهن التى تمس الحاجة إليها . وقد عهد محمد على تأليف جيشه النظامى إلى ضباط فرنسيين وإيطاليين وقفت الحوادث السياسية فى سبيل بقائهم فى بلادهم . وطوتحت بهم إلى الخارج . فارتموا فى أحضان الشرق . وقصدوا العيش فى أكنافه . فشل العزيز بآدىءذى بدء . ولكنه ازداد شعوراً بضرورة إنشاء الجيش الحديث . وبعد الاستهداف لكثير من الصعاب نجح فى مشروعه . ولعل المصريين أكثر الناس صلاحية واستعداداً للجنندية الممتازة . فهم بوجه عام أشداء أقوياء البنية متصفين بالقناعة والجلد على تحمل المشاق والخضوع والطاعة والخلود إلى الصبر عند عثور الجدّ والإقدام على الخطر واقتحام النيران .

هو العلم الذى تفديه مصر :

ولأول مرة فى التاريخ الحديث صحا الشعب المصرى من غفلته . وثار إلى رشده . وقد تنسم شذا الحرية فى صافى جوه . ورصد كواكب الهداية فى زرقة سمائه . وعان معالم المدنيه والرقى فى ثابت أرضه . فتفتق ذهنه إزاء ما وضعه العزيز . من نظم حديثة . وقد شيد للوطنية صرحاً منيعاً . رسا أصله تحت الثرى وسما به إلى النجم فرع لا ينال طويل . وركز على قته شعلة الهدى . ومازال أبناء مصر يتهاقون عليها . يصطلون بنارها . ويستضيئون بأنوارها . ويستهدون بضياؤها . حتى جاءه الفاروق . يدم جدرانها . ويشد بنيانه . ويدبّ فى الشعلة روحه ووجدانه

ظهر الشماع ساطعا في قوة جماله وعزة مجاله . وقد أنا نامستقبل والعزير ،
في الفاروق ، للصرح بخير مُسند وللقبس بخير موقد . لإتمناه الشعلة وهما وذا
يذكها بأنفاسه ويوقها بأقباسه . فكان «الفاروق» شفيقنا في أنوارنا . يستمدّها
من الكوكب الدرسي . ويمدّها قلوبنا . فينير بصائرنا . ويهدي ضمائرنا .

وفي الختام لا يسعنا إلا أن نتغنى بما أنشده شاعرنا من ربع قرن . مجدين
عرش فاروقنا :

« جمعت الناس حول العرش علما	بأن لمصر في العرش اعتصاما
إذا طافوا ببیت الملك يوما	سبقتهمو إلى الركن استلاما
تضائل شخصك الضاحي وقاراً	وتخفض رأسك العالی احتشاما
وكان العرش هامة كل قوم	وإن كانوا أجلّ الناس هاما
هو العلم الذي تفديه مصر	ونحن الجند في العلم انتظاما
والحمد لله رب العالمين	

المؤلف



في ٣ شعبان سنة ١٣٦٩
(٢٠ مايو سنة ١٩٥٠)

إسكندر غزير

ملحق الكتاب

كانت الجدة جادة حين قالت لحفيديها : « وكأني بالأسرة تذهب في الانقباض . وتمضى إلى الانقراض . من عهد العزيز العتيد ، إلى عهد الفاروق المجيد ، أرى ! ما يكون شأنكما من تراثها في حماه ؟ وما يكون حظكما من ذكرها في قراه ؟

جاء يحيى ويوسف كاشف . فالحق وعزيز مصر ، أو لهما بمعية طيبا أمينا وتابعا وفيا . ذكره الجبرتي في مناسبات كثيرة وذكر هو ويوسف كاشف في دفاتر المعية (سنة ١٢٤٢ دفتر ٧٣٢ وسنة ١٢٤٧ دفتر ٧٦٨ وسنة ١٢٥٢ دفتر تركى ص ١١٦) وتوفي سنة ١٨٣٦

ثم جاء ابنه اسكندر ولد بالقاهرة في ٢٠ يولييه سنة ١٨٢٥ وأرسله « العزيز » في بعثة علمية وفي غرة شوال سنة ١٢٦١ ذكر بدفاتر المعية جريدة استحقاقات ذوات كرام ديوان خديوى ورقه ١٣٠ عين ٢ وجه ١١٦ الخ صاغقول أغاسى اسكندر ترجمان بالمعية من تاريخ قدومه من بلاد الأفرنج (لوندرة) وصدرت الارادة السنية بذلك في ٩ جاسنة ١٢٦٢ وفي سنة ١٢٧٠ الحق بأركان حرب سليمان باشا قائمقاما فاميرالايأ ثم بنظارة الخارجيه وأحيل إلى المعاش في ١٦ يونيه سنة ١٨٨٤ وقد أشاد بمآثر الأسرة المحمدية العلوية في مذكراته وأحاديثه وتوفي في ٩ ابريل من السنة المذكورة عن ابنه يوسف عزيز بناية المحكمة المختلطة بالاسكندرية ولد بالقاهرة في ٢٠ يونيه سنة ١٨٥٣ وتوفي بالاسكندرية في ٢٠ أغسطس سنة ١٩١١ قاضيا بالبحاكم المختلطة عن أولاده .

يحيى ولد بالقاهرة في ٢٦ أغسطس سنة ١٨٨٣ وتوفي في سنة ١٩٣٤ محاميا .

وكامل عزيز ولد بالإسكندرية في ١٠ أكتوبر سنة ١٨٨٥ وتدرج في الترقى رئيساً لنيابة استئناف مصر ورئيساً لمحكمة الإسكندرية الوطنية فاستقاراً بمحكمة استئناف أسبوط وتوفي في ٢٦ يولية سنة ١٩٣٦

وفؤاد عزيز ولد بالمنصورة في ١٤ إبريل سنة ١٨٩٥ وتوفي في ١٧ ديسمبر سنة ١٩٤٧ قاضياً درجة أولى في محكمة الإسكندرية الوطنية .

واسكندر عزيز واضع هذا الكتاب ولد بالمنصورة في ١٩ يونية سنة ١٨٩٢ وواضع رسالة فلسطين سنة ١٩٤٨ وكتاب « الفيض بعد الفيض » وهو سفر أدبي من أربعة أجزاء لم ينشر بعد - يوسف عزيز ابنه وخاتم عصب الاسرة . توفي فجأة ليلة ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٤٩ في عز شبابيه وكامل صحته . سقط مجاهداً في ميدان العلم والأدب . وكأنه استشعر دنو ساعته قبيل اقتراب يومها . فكان حديثه لأمه . . رأيت في منامي أني ذاهب إلى حيث أتخلص من تكاليف العالم الأرضي الزائلة وتكاليفه الزائفة . أذهب حاملاً في ثيابا روحي إلى العالم العلوي شطراً من روحك : « الطهر والتقى » . وقد سمعت هاتفا قد سبياً من نور يقول : « إتبعني ولا تتركني » .

وليلة وافته منيته أنهد أباه رثاء المهاجرة العربية في ولدها وكأنه استشعر رثاء أمه له في غدها .

« أحثو التراب على مفارقة	وعلى غضارة وجهه النضر
حين استوى وعلا الشباب به	وبدا منير الوجه كالبدر
ورجا أقاربه مناصحه	ورأوا شمائل سيد غمر
ريته دمرأ أفنقه	في الهرم أغدوه وفي العسر
ما زلت أصعده وأحده	من قلل مومة إلى قتر
هربا به والموت يطلبه	حيث اتويت به ولا أدرى

وإذا راعى صوت هببت به وذعرت منه أيما ذعر
 وإذا منيته تساوره قد كدحت في الوجه والنحر
 وإذا له علق وحشرجة مما يحش به من الصدر
 لو قيل نفديه بذات له مالى وما جمعت من وفر
 أو كنت أقدر على عمرى أثرته بالشطر من عمرى
 لو شاء ربى كان متعنى بابنى وشدة بارزه إزرى
 لا يبعدنك الله يا عمرى إما مضيت فنحن بالآثر
 وماضت ساعات ثلاث حتى استسلم هادئا بين ذراعى أخته وأمه
 « والموت يقبضه ويبسطه كالثوب عند الطي والنشر ،
 ولكن

« هذى سبيل الناس كلهم لا بدّ سالكمها على سفر »
 وإنا إزاء مساهمة الحفيد يوسف فى وضع هذا الكتاب ، وإقراراً بفضلته
 وحفظاً لذكره ، وجب أن نختم الكتاب بصورته .



أغدقه الله برحمته

وأسكنه فسيح جنّته